الأعمال الشعرية



الأعمال الشعرية

الكتاب: الأعمال الشعرية
المؤلف: سلام حلوم
شعر

الناشر:
جدار للثقافة والنشر | مالمو، الإسكندرية
info@jidar.net | www.jidar.net
الطبعة الأولى 2025

الترقيم الدولي: 978-1-326-21908-6
التصميم الداخلي والغلاف: جدار للحلول المستدامة

Collected Poems
Author: Salam Halloum
Poetry
Publisher: Jidar for Culture & Publishing
.Interior and Cover Design: Jidar for Sustainable Solutions

ISBN: 978-1-326-21908-6

سلسلة الأعمال الشعرية
قصيدة النثر العربية
جدار للثقافة والنشر

سلام حلوم

الأعمال الشعرية

شِعر

المحتوى

مديح شاسع للقش

1991

دعوة

لا تقولي عن دمي؛
إنّه مرَّ مسرعاً بضفتيك
كأنّه؛ ما أطلق كلَّ أسراره
تحت شمسك
كأنَّه؛
ما فرَّ من عروقي التعبة
ليترك للندى سقيها.
وهي التي صارت حطب

عروقي حطب
وأنا الحريق النهمُ
دعي فرَاشك خارجاً وتعالي
فإن كان فزاعة قلبي
فللعصافير
تستاف زقوها
وتنسى
إذا
آن الحصادُ
أن قمحاً نافراً
لا يُنقرُ بغير عناد

في لحظة ثلج

لم يأتِ مع الثلج أحد
لا السحابُ الزاجلُ
ولا صوتُ ناي
من زنزانة الأحباب
لا الزرازير
ولا تماثيلُ الطفولة
ولا العربات التي تمضي
صوب مواسم الكمأ

غابتْ حكايا الجنِّ والسعلاة
وأسلمت أمّي ضفائرها
لعجينة الحنّاء
كأنَّما
خرَّفت العجائز أيّام قلنَ
«الشاطر حسن؛
يعاند حتى صقيع الجبال
ويأتي بالضباع
ملجومةً بشاربيه»
ومع الثلج لم يأت أحد

صفير
صفير
ومن غير بنات آوى؟
إذ القطارات لم تعد تأتي بالطحين

وعمّال المحطات يلمّون كالنسوة
من حوافِ الدور والسكك العجوزة
نبتة الخبّيز
ومع الثلج
لم يأتِ أحد

قد كنا يا ثلجُ
أرسلنا الحمائمَ
فعادت بجنّاز الهديل
أرسلنا خيولاً
كي تقيس الجبال
فاغتابوا الصهيل

حتى صديقي؛
باع آخر ما لديه
خاتماً من الخرز الجميل
وراح يبحث في خمارة الحيّ
عن ليتر نبيذ
فضاع (*)

(*)

اهتدى إلى غيمةٍ
فانفجرت عليه
تسامق بالعزف
حتى أخذوا الناي معه
ظلَّ يمرّ ببالها كالفرس المدمّى
فتزوّجت غيره

سألتُ المسيحيَّ
هل مرَّ كي يشتري منك نبيذاً؟
قال: مرَّ
ولكن؛ في سيّارة الجيب
هل
صاروا يلمون السكارى؟

انتظرتُ
انتظرنا
حتى صرنا يا ثلجُ
زجاج الشبابيك
ولم يأتِ معك
يا ثلجُ
أحد

واحدان

زوج؛ مَطَريان
متكئٌ على صفصافها
ومتّكئة عليه

هي؛
من عقيق ومجدْ
هو؛
إذا بظلالها طمرت جراحَه

يزهو
كنبع ينجب أنهاره الأولى

سؤالات

من أنت؟
حتى انحنت أسواري
لتمنحك الياسمين العصيّ!
من أنت؟
حتى تهدّل في رأسي
كلُّ هذا الشرود!

من أنا؟
حتى تطلي على قلبي
بكلِّ هذا اليمام.

حتى آخر الشغب

كُنَّ يا قلب!
كفى! تنقّرُ أضلاعي
تهرهر كوخَك
أخاف عليك
من حدأة أو غراب

هل تعبت من حَمْلها وحدك
هذي البكاءات
وهذي الانكسارات الشفيفة
وهذا الزغب يبسان عتّق دموعي
أيّةُ خابية سواكْ
ماذا أسوّي لكْ؟
إذا،
غيم خائف ضيّع أسرابه
في أعالي الجبال
إذا ثلجٌ عاف هيبته
وصار يموء
بين سيقان الشجر

ماذا أسوّي لكْ؟
إذا،
نسيت طواحين الهواء جداولك
واكتفت بالسواقي البخيلات
وصار يذبل من حواليك القصب
يبسانْ
كنتُ طيّرتك. ذات غمام.
يوم قالت: «هزّني رعدك
لُفَّني كي انهمر»
عدتَ بردانَ وما دفّأتك حتى شقوق الخشب

ماذا أسوّي لكْ؟
كُنَّ
لست كبحر

يكفُّ عن موجه
إذا تتعرّى المراكب
أو تغازله منارة
فكيف سألجمُ فيك
الشغب

كُنَّ
ماذا أسوّي لكْ؟

رؤيا

إلى أزدشير سلامة

خربت عوسجات
وأورق رمل
ثلج خجول حطّ
ورد واسع. لا أوسع من عينيكِ.
أفاق

المطر الكابي على شباكنا
من أول حرف على البلّور
لما كتبت اسمك
تسلَّل
هذا
حين أغلقت قلبي
عليك

مينيرفا

أنا يا منيرفا حزين
كما عربة فرً حصانها (*)

(*)

ليس بيني وبينك
سوى؛
أنا الحصان ضيّعت بين أعشابك
صهيلي
فصرت لا أقافز دغلاً
أو أراقص جبل
إلا وتغار مرتفعاتك

فمدّي كالساحرات الضفائر
واسحبيني
حتى لا يشيخ على قدمي وَحْلٌ
وفي كفيَّ يخربُ بيض اليمام

أنا يا مينيرفا
محارب مستريح
لمُّيني إليك
وجهي الحرون من البرد
ماذا لو تسكّع بين أنفاسكِ؟
أصابعي الناحلة كالعيصلان (*)
اجمعيها كوخاً

لنهديك الخارجَين على النحل

(*)

ليس بيني وبينك سوى؛
أنا غادرت أصابعي
عندما علّمتني شاماتك
أن أعدّ من الواحد
وحتى فمكِ

أنا يا مينيرفا
ألفُ ثلج مرَّ
وما لاعبت غير هرّتنا العجوز
ألفُ وردٍ مَرَّ وما أهديت
جوريّة لأحد (*)

(*)

ليس بيني وبينك سوى،
أنا الصفصاف الباكي
دائماً أصعد ولا أصلك
اسألي الورد النافر
في حيطان بيتك
اسألي تنكات الجوريّ
والحبقات الصغيرة
كم تعوَّدت عليَّ

وطويلاً كنت أشاغب
ولا أعرف أن أفكّ جديلة
فسامحيني
سامحيني
إذا كنت شقياً
وأنا أقيس بارتجافي
شموخ حلمتيك النزقتين
كالتّوت البري (*)

(*)

ليس بيني وبينك سوى؛
أنا سكرت
حتى حنّت عليّ القناني
فأنت كنت ترمين نافذتي بالحصى
لقد استبدلت بالحصى أغنيات فيروز
عندما تركتُ النافذة مفتوحة.

مديح شاسع للقش

يباغتُ!
ليس كما ألفناه، أيلول بكَّر
واستعجلت هذي المواقد الحنونات جفلانةً
أن تنفض عنها ابتهالات الرماد
وعنَّا الكلام

نحن يا مواقد
أعواد مهرّأة وأشباه حطب

نحن موتنا لا يهم أحد (*)

(*)

ما سوف ننسى؛
القشّة والحصان الخشبيّ
وكذلك الحصاة التي تسند جرّة

ليس كما ألفناه،
غيمات تبكّر؛
تكنس عن مطارحها
غبار أقمار عجائز (*)
تستطلع النوء
هل ثمة، ما يراود الغيمَ عن ثلجه
والبحرَ عن فحولته

(*)

ما سوف ننسى؛
المنامات
حيث المشانق يكسرها الجبل
على ركبتيه

كيما تعود
تبشّر الشقيقات
بالمزاريب والسّيل
وأنّه سوف تصبح الدنيا
سماءً وماء
نحن يا بحر يباسى

أعددنا مديحنا للقشّ
أعددنا الزمان قيلولة في ظلِّ خرنوبة

نحن يا بحر
حرش من القصب التالف
كلما اهتزَّ حلم هررنا
وأخَّرنا على الشتاءات
حصيراً وناي
نحن، موتنا لا يهمُّ أحد

أيلول لماذا تبكِّر؟
ليس صيفاً أن تشيخ الدوالي
وتنتظر الجرار نزيف العنب
ليس صيفاً؛
أن تمرَّ حبيبتي
ولا يرفع الحبق الأليف
تويجاته
ليس صيفاً؛
أن تكون مائلة على القمح
ولا أقول:
حنطية اللون حبيبتي! (*)

(*)

ما سوف ننسى؛
الحبيبات الناكرات القبل،
والناسيات رنيناً أيقظ نهودهن!
الخائنات خبزنا وملحهن!

ليس صيفاً
أن يتقصّف القرميد
وألا يضيق بثياب القنب الرطب
فخار الخوابي (*)

(*)

ما سوف ننسى؛
الفخّارحين على جماجمنا
يكسِّر بعضه

ليس صيفاً
أن يصير عاقلاً ليلنا
وتفر أحلامنا الزغب (*)
وتخرب أعشاشها في الحواكير العتيقة

(*)

ما سوف ننسى؛
الحمام الهادل
على سطوح الغير
الجبال التي تخون. فيما تخون
الحجل

أيلول لماذا تبكّر؟
أيّ شتاء سيأتي بجدّاتنا
والخرز العتيق وأطواق العقيق
كي تفزع الغولة ولا تدخل علينا المنام

أيّ شتاء
سوف يُرقِّص أمطاره (*)
تحت قناديلنا المتعبة
وأي مطر
سوف يغار من حناجرنا
المبتلّة بالبكاء الرخيم.

(*)

ما سوف ننسى؛
البحيرات المرة
وكذلك الحلمات المغلقة بالحصى
ودمعاتنا العالقة على وجناتنا
كأعواد الصقيع

أيلول
شكوى صغيرة للرّيح فيك،
لماذا،
تدقين النوافذ التي بلّورها
تلويح عاشقة
وتهرّين أمام دردارة؟
لماذا كلّما اهتز حلم هررنا؟

ولماذا
نحن
موتنا
لا يهم
أحد؟

قطار الإثنين

الإثنين؛
تغرِّبين إليَّ
سوف أستبدل بسكّتي هذا القطار العجوز
ساعديَّ

الإثنين؛
وقتَ يوقظ زقوك
الكابين في المحطات
سوف تختار . لأوّل مَرّة في عمرها .
أن ترحل بالقطارات العصافير

الإثنين؛
تغرِّبين إليَّ؛
سوف تندب الشمس حظّها
فزهرُ العبّاد الخجول يتعلّم كيف يتّجه صوبك
الصيف القادم

المشهد الأخير لأمينة

أذكر، (*)
كان يتخبّط مثل غراب ذبيح
ليل كانون

(*)

برد!
صفّ من الزمهرير
يلهو في عناد الخشب
ألف ذئب خلف كعبي
برد!
كأني أرضعتني المسافات ثلجاً
وناغى في دمي الأليف كانون الجبال

أذكر
جئت بردانَ على غُرّتي نثارُ ثلجة مبكّرة
يداك لفّتا عنقي واغتسلنا
كان جميلاً حَبُّ الكستناء
مثله تعرِّيْنا (*)
ومثلَ ضفيرتك
التي اختصرت شقرة السنابل انجدلنا

(*)

كان لها مثل كلّ الجميلات
عينان كزيتون قريتها
نهدان شامخان
شامة في الجبين
وغمّازتان

أذكرُ
شربنا رُبْعين
غنّينا، رقصنا، (*)
راقصتنا الأرضُ،
والمسافات التي ندخل سهبها
غزلانَ وطن ضيق

(*)

برد!
البراري تنوح على غزلانها
برد!
أيّة صيبة ستملأ حرجها
بالقطن والشمس؟

بضع قصائد

إلى أمان أبو دان

تبكين؟
لو سرقت ريحٌ حفنة دمع
أَوْلمتها للعصافير تأتي
وقد غَبَّر مناقيرها الرحيل
أنا
أبكي

تبكين؟
يوم يتملّى عاشق وجهاً

تركض الحجلات في عينيه
وعلى كفٍّ متعبة تهدَّل
وثمّة في الشفاه ألفُ قبلة مُحَنَّطة
أنا
أبكي

تبكين؟
لو عن شاعر يسمّونه الوعل حكيت؛
مُرَّة دمعتي
وهل تنقر العصافير دفلى
في الحلق غصّة يبست
في القلب
عنقود من النبض يابس
لم ترغب زبيباً أسطحة القرى
ولم ترغب عرائشَ دموعُ امرأة
أنا
أبكي

تبكين؟
لو في شهوة البكاء
أوصد الغبار مقلتيك
وراحت دمعة تحفّ مجراها باتجاه القلب
أنا
أبكي

حركات الحصان الثلاث

[1]

يثبُ، أبيضَ، أبيضَ
يعرِّج على نهر
ثم يعانق شلاله في الجبل
يسلّم بعينيه على المسافات
الشمس ترقص على صهيله
حتى ينام في يديها البحر

[2]

يُروى؛
البلاد،
كلُّ البلاد، رأته في الحلم
الحمامُ؛ عاف الهديل
الأطفالُ؛ رسموه على دفاترهم
النساءُ المحصّنات؛ أُجهضن
الفلاحاتُ في الحقول؛
توحَّمن عليه

[3]

لم يكن أبيض

ذلك الورد
قبل أن يرقص طوقاً حول عنقه
لقد كان أعمى؛
القمر الذي لم يتناوق من كهفه الشتائيّ ليراه

معراج المطر

رعويات خمس إلى حسين برّو

الرعويّة الأولى

حتماً سأعود
أقطف من السفوح البعيدات ورد صراخك لي،
وكراعٍ ماهر سوف أجمع قطعان غزالاتك الدائخة عليَّ
وأسال بقايا خطوك على الماء عن كفّيك لأشرب
عن أطيب قصب يصير ناي

عندما أصل حورتنا المثمرة
رائحتَك سوف أتمرّغ في ظلّها عريانَ إلا منك
كانت إذا افترقنا أنت تلونين الفراش وأنا أعد أعشاش الحجل تطرد صمغها
وتستعد إذا نرجع تلتصق مرتجفةً بنا
خلّي كلّ شيء على حاله؛
قرنَ الغزال المعلَّقَ تحت صورتك؛ مطمورةَ خمرنا
فسوف أشمُّ رائحة الباقي من سكراتنا
المرآة الشامخة قبل أن تمسحي غبارها أهزّها من كتفيها
هل تحفظين ملامح المرّوا؟

الرعويّة الثانية

حتماً سأعود
جهّزي جمرك لا تفتحي جرّة النبيذ فسوف نغيظه حتى يفرَّ ويتعلمك
لا تزيحي عن مخدتنا العناكبَ فسوف تلملم بعضَها وترحل عندما ألهث بين يديك كوعل

الرعويّة الثالثة

حتماً سأعود
عاليَ القلب رطباً ومنكسراً كعُود زان
عاشقاً ضَيَّع نصفَ كفٍّ من ضفيرتك،
عافك مزدحمة بالبنفسج وكذلك عاف الدَرَج المسيَّجَ بك
ولداً ضيَّع زراً من العقيق كانت أمي،
قطبته على قميصي لأذكر وصيتها
« الحائطَ الحائطَ وصُرَّةَ الحنّاء»

الرعويّة الر ابعة

حتماً سأعود
تشتاق أرض ما قطراتي،
لست بخيلاً كي أدير ظهري للبحر
فأخسر ألف ساقية وسيل
أنا عندما كنت صغيراً،
علّمتني الحَجَلات كيف أركض صوب الينابيع

مَرَّةً علقت شوكة في القدم «هي في الليل عروس لا تخرج»

قالت أمي. بكيت، أخرجها أبي «تُخرِّف أمّك عيناها تعجزان عن ضمِّ الإبرة يا ولد لا يبيت الشوك، اسأل صبايا الغدير»

الرعويّة الخامسة

حتماً سأعود
خجلانَ من عينيك اللتين بلا كحل،
من أصابعك تكرُّ كنزتي إلى خيطانها كلّما اكتملت حتى أعود
خجلانَ من تحت إبطيك اللذين بلا عطر،
من عِرْق النعناع المخبأ بين نهديك لرأسي المتعب

خجلانَ من حماماتك والغراب؛
تعبوا من التدوير بحثاً عن الجوديَ
خجلانَ واطئَ الموج أخرجُ من الغمر،
زيتوني
نبضك المحتشد بين أضلاعي

كانات الرجل

1999

إلى ابنتي شمس الضحى رأد

بقعة من رجال

ظهيرةٌ تئنُّ، فالجِبالُ التي انْحَنَتْ لهم،
هرّتْ عن رؤوسِها عمائمُ من لهبٍ،
وعلى حقلٍ من غبار عالٍ وملتفٍّ حول ضياعهم المبعثرة كالثآليل تذوبُ
شمسٌ واطئة.
يصعدُ لغطٌ على القباب،
نسوةٌ يقرفصنَ أمام سيقان تعلو بأصفرها الكالح،
يفكّ النحيبُ جدائلهنّ،
ومن صدورهنّ تنسلُ حشائشُ ورجال.

قططٌ تكفُّ عن فخاخها،
وفي النواحي القريبات يهزجُ بومٌ،
ويستعدُّ قطيعٌ من النمل،
وبين كلّ حارتين تطلعُ بُركٌ من عتابا حزينْ
وصوبَ جهةٍ بمصراع واحد، كبابٍ خربٍ،
ينقادُ من دمعه، رتلٌ
من جبال، وماعزُ الأحراش، حنان النادبات، ورجال.

الرجالُ الذين بملامح تُسرفُ بالغبش، الماثلون في الحطام،
يتّكئون على دهشـةٍ في الجسـاراتِ، كي يضعوا رئاتهم خارج هذا الهواء، ثم برؤوس متهدّلة كتين ذابل، يصعدون قنطرة من الفزع الطويل، وثـمَّة على الماء كحياضٍ من البلغم، يرسم عتم لهاثهم، برجاً من لهاث.

جراءٌ تتلو نباحها،
فيرتعدُ تنكُ أحلامهم، ذئباتٌ تشمُّ حوائجهم،
وعلى هامش أحزانهم تدرجُ أقمارٌ ووحلٌ صغير.

الذين غادروا في الوَضح، تركوا نساء يسحبْنَ السلالم من عناق الأسطحة كما يسـحبْنَ قطن أيامهنّ من جوزةٍ تالفة، تركوا عجائز تنامُ على فسـحة الوَدَعِ، وحدهم الأولادُ، يرقصــون على خشـخشــاتِ الغجريات، ويقصّــون بالقفزِ أشجار الرّنين.

الأعراسُ اختزلت دبكاتها إلى نصــف دائرة ونامت على صــراخها الرّابض في الحلق ديكةٌ وخيزرانُ، وتأهّبت في صناديقِ المؤونة خواتمُ وصررْ.

تركوا فيما يتركُ الطاعن في المنفى،
صباحات مدجّجة بالغبش،
تعباً فائقاً على شتل المواويل، مصاطبَ من أمل،
تركوا حبالى، طفلات بلا حَلَقٍ، كرزاً واثقاً من حُمْرته،
تركوا مرايا في العويلْ.

الرجالُ الذاهبون في العوسجِ، يفركون عيونهم بثياب الحيّات، وفوق رؤوسهم أقواسٌ من هداهد، يَسْحَلونَ أكياس أعمارهم، ويغذّون في صفيحٍ أخرس من الشوك، ثم بصدى مبحوح، ينزلون الأجباب على هيئة أجراسْ.
الرجال الذين استندوا إلى حائطٍ من ملحٍ وذابوا،
وتحتَ سـقفٍ للغربَةِ أحدبَ، انحنى طولهم، وخلفَ ظهورهم المثقّبة كغربال،
يَبينُ طالعُ الشّجرْ.

ثمّ،
يقلُّ الفضاءُ،
يقلُّ الفضاءُ،
إذا ينتفخون كجثثٍ بائتة، وعلى أقفاص الفوانيس، تنتحر أكفّهم كالفراش.

بلاد

بلادٌ،
من هنا مرّ طوفان عجولٌ، كوّر عقيقاً،
واستراحتْ على قمَتين أفراخُ الكرز.

بلادٌ،
من هنا سوّت فرائضها رغوةُ الجحيم، جرحاً على سفْحيْه اصْطَلى واسمرَّ حدُّ الجهات،
وبين بركانين ساجديْن،
تفوحُ البلادُ حبقاً أعزلَ، يغفرُ للأصابع غزوها البهيج.

بلادٌ،
وأنت تخرجُ، عيناك على تفاح الوراء، على نهرٍ ألّفته فيها،
على حبَق يركض خلفَ شُرفات يديكْ.

بلادٌ،
إذ يفاجئها الحليبُ الماجدُ، تلمّك من فوق تضاريسها عسلاً ونحنحات،
وتدخلُك هذي البلاد الواقعة،
بلادُ
ما بين
النهْدين.

فقط ما

إلى هيثم سليمان

فقط لو انتظروا!

حتى أرتّب أوّلاً بأوّلٍ ذكرياتي، في هذه الرأس المتأهّبة للطفو كخشبة على نهر، وألمّ غسيلي عن حبالِ الجارة، وأنصتَ لأمّي تدمعُ بالعتابا فوق صواني انتخابِ العدس، ألحقها كالأحفاد والدجاج، عالقاً بجيبها، أفتشُ عن سكاكر ومسبّات، عن خيطٍ تعلّقه على ياقتي، كي لا أنسى صرَّة الحنَّاء، وأديرَ ظهري لبنات المدن، وأسأل الهلال المتّكئ على جبينها، من حدَّبَ زان أيامها؟ مَنْ لمَّها إلى هذا القليل من الجسد؟ مَنْ يقبض الآن على قبّة العُكاز؟ أصابعها أم نحن؟

فقط لو انتظروا!

حتى أمرَّ بجدّي يشتمُ بلاداً كأنَّ على رؤوسها الطير، ويُسكت جدّتي عن حكايا الحرامي، والرجال الطويلين يسرقون جدائل الصبايا، وأساورَ الفضّة، وأقفالَ العانسات، وحاملات النهود عن مناشر الأرامل، ثم يُطرق، يَنْكُتُ الأرضَ، شاكياً لدوائر الرّمل، خيبة العمّاتِ، والأعمامَ الضاربين في السياسةِ وتِيهِ النّساء، ومعرفة الخيل، الشائدين على حصيرٍ دنيا من حاتميّين ويتامى، وغيمٍ يراقصُ عاليات القصب، أمُرّ، أهزّه من سنديان كرسِّيه، ضارعاً: عَشّشَتِ الجوارح يا جدّي، واسعَ الجنازةِ كنتَ، وضاقت على نسلك المارقِ، جهاتٌ، وأسئلةٌ تُدوِّخُ، وزنازينُ، وعلى أبي ضاقت الأنفاسُ، هوامشُ الرِّزق، والنعلان، والأسرةُ التي سماها على نَزَقٍ حاكورة الشّوكِ، لا نعرفُ يا جدّي لا أين خبَّأ مواويله، وأراشيف الورق، ولا أين مات؟.

فقط لو انتظروا!

حتّى في الطريقِ إلى المدرسة، أعُدَّ دَوْساتي، وكَمْ تراباً تهرَّأ؟

وكَمْ لم تُفلح الفلقات من معلِّم الحساب، وكَمْ رغيفاً تدهن جرّة الزيت؟ وكَمْ قلمَ رصاصٍ سرق صاحبي الكسلان حتى اعتلى النحاس كتفيه؟ وكَمْ زعلاً قصيراً بيني وبين كبيرة النهدين.

فقط لو انتظروا

حتى أجرّب غمزتي الأولى، وأمسك أوّلَ الدبكة، أشمَّ أنوثة ابنة عمّي، تفوح في المحرمة المطويّةِ على أوّلِ خوخِها، ورجفات يدي، وأخلعَ مع العجيانِ المزاريبَ، نسرقَ البيض، نكتشفَ في المعالفِ العادةَ السرّية ومثلّث العانات، نعذّبَ البغال المحمّلة بالبيلون، نبني فخاخاً، تماثيلَ من ثلجٍ نخافها في الليل، أراجيح على أغصان تينتنا البارعة، أدخلَ الضيعة من حصادها، والبيوتَ من شبابيكها المطلّة على وردٍ خيّالةٍ عبروا.

فقط لو انتظروا!

حتى أسقف بالحمام سماء الجامعةِ،

وأسحبَ الشوارعَ من خطونا القديمِ،

لا لتدلَّني، أعرفُ،

بل لتحمل معي ظلال سهراتنا في البيوت التي تعدّدت كَنَحْنُ، في الحاناتِ التي ترفع كلّ خمرتها لنا،

في النوادل يخبّئون زلات أحزاننا، تعلّموا كم معاتباً حنوناً يلزم الطاولةَ كي تستطيل بنا،

وأفكَّ الأرصفة من محاذاتها، أكاتفها بالشَّجر الواقفِ على ساقٍ واحدة بعد زمان، كنا نُلقي سلاماتنا عليه دون دعوته لمشوار قصير خارج سور الحديقة،

أهزَّ الصدأ العجوز عن صناديق البريد المعلّقة بعزلة على الحيطان، أسألَها عن مكاتيبَ لم تصل عذراء إلى أصابعنا،

أسهرَ حتى نصبحَ علينا، ويكتشفنا شفقٌ أليفٌ، عشرةً ننام بالعرض كي يسعَ اللحاف وآخرين ينتظرون إغفاءً عجولاً،
فثَمَّة ما يُليّل أبعدَ من الغرفة، وأقربَ من غربة الحاراتْ.

فقط لو انتظروا!
حتى أعاون الأحبابَ يبنون قلاع التذكّر،
والصحبةَ المشتهاة يتّقون كرم البالِ من عشبةٍ ضالَّةٍ،
وبعضٍ من حطبٍ نحيلٍ، ومن عنبٍ في عزّ الكآبة اختارَ الزبيب، ينقّون مطارح الألفةِ من امرأةٍ مثلما كانت تباعد بين ضِفَّتَيْها، باعدت، من أصحابٍ ذابلين،
وأكداس من مناماتٍ مرَّةٍ، لا تغبرُّ، من بهتانِ الحكاية،
ومن عائفين لا ينتظرون حتى أصرخ:

روحوا
أنا
لن أتركنا!

شاقول من ليسات

رجلٌ يهبِطُ
لَيْسَ كَنجمٍ ينتَحرُ بخطَّافةِ النَيْزكِ
لَيْسَ كَبَرَدٍ لا يثقّبُ بلّورَ العزلةِ
لَيْسَ كَرعْدٍ يرتِّبُ في حجرةِ نومِها قوسْاتِ القزحِ
لَيْسَ كَإلهٍ يخلّص أنبياءهُ من لذاذةِ التيهِ
لَيْسَ كَبرقٍ يتجوّلُ في العتمِ على هواه
لَيْسَ كَذكرى تقرصُ النسيانَ وتمضي
لَيْسَ كَرغبةٍ تعرجُ في المستحيل

لَيْسَ كَطائرٍ فَقَدَ ذاكرته فحَطَّ على فخٍّ
لَيْسَ كَسيلٍ يطارده زباه بحثاً عن حُصيَّات تاجه
لَيْسَ كَمساءٍ يُدحرجُ الشمسَ بقدميه
لَيْسَ كَليلٍ لا يتفضّضُ قبلَ أن يُديرَ ظهره
لَيْسَ كَأجراسِ الماعزِ من التلال
لَيْسَ كَحجرٍ لمْ يحتملْ وثوقَ نَسْرٍ
لَيْسَ كَحلمٍ على مرايا خافتات
لَيْسَ كَاستغاثاتِ راهبٍ أفزعتهُ وحشةُ الأعلى
لَيْسَ كَصفحةٍ من جليدٍ هَرَّها تنابحُ الوديان
لَيْسَ كَوحي منْتعلٍ مخمل الكلام

لَيْسَ كَرمانٍ تشقّق
لَيْسَ كَحسراتِ راعٍ هربتْ أفعاهُ من ثقبِ المزمار
لَيْسَ كَثلجٍ يتردّدُ بين الأبيضِ واللا لون
لَيْسَ كَعرشٍ تبنيه بلقيسُ وتهدمه هداهد
لَيْسَ كَحمامٍ
لَيْسَ كَمطرٍ خشنٍ
لكن كقلبه تماماً
يهبط الرّجل

نص الماءين

الماء الأول

أنا الماء، أنا الأول، فائق ما ترضع الجبالُ من غيم شجاع،
لا من سحاب خُرَقٍ، يستر عورة المسكين الشتاء، لا دفَّة تطفو
على نهر يجرّب عقوقي، الجداولُ أصابعي تمسكُ بالأرضِ مشدودةً إليّ. ونائخٌ
الشجر الذي يحاول أن يرى نفسه على مبعدة من نقاطي،

أنا الحافرُ الشواطئ الجديرة بموج أبي، ولا كما تهذي ـ من غيرتها اليابسة:
«إنّه الموج يهرب من غطرسة البحر لاجئاً إلى عبّي وأنّه في آخر شهقة منكسراً
وتائباً أو مشدوداً من زبده، حرّاس ماهيّة الماء يقبضون عليه».

أنا الماء، السبخاتُ المغلقةُ ليست من ضناي، أنا فاضح الملوحة، نافخ
التشكيل في الوحل، المعاقبُ خشباً منكمشاً على مساميره في الخزائن،
أنا علّمت السرو كلّ هذا الطول،
أنا الكاشف الحَوَل الحسنَ في عيني نرسيس،
الشلال قليلُ دوختي
حين أستدير دمعاً لائقاً في عيون الناس،

أنا واضحٌ، نوافذي الأجبابُ،
أنهض في خابية، أدخل دلوَ الجميلات يرتشفن صباهنَّ من غديري، أنا قُبلة
جبلين في مضيق، الجزرُ شاماتي،
أنا الخيط يضمّ خرز الأرخبيل، القارّات قميصي،
البردُ تلويحتي لصيفٍ تطارده الرطوبةُ في الجهات،
الطوفان فوضاي،
النسغُ نزهاتي السرّية في عروق الأخضر،

الندى أفراخي؛ تجرّب المرح البهيج في حضرةِ اليخضور

أنا الصبرُ في الشوك،
أنا لست صمغاً، أنا دمعُ تينةٍ،
أنا شجر المشي في رِجلَيْ عطشان،
أنا الشاهد على قمرٍ تنـدَّم لمّا عـافَ مدَّه حين أغرته بنـات نعشٍ، أنا الخيبةُ في الغربال،
أنا النازحُ الأنقى من جبروتِ الكيمياء،
أنا واهبُ اللزوجةِ،
أنا السطوةُ في الثلجِ،

أنا لست لا شيء، أنا لا أستحي، العريـانُ أبـداً، فالـق الصخر فراتاً سارحاً في المرج، أنا العالق في أردان فلاحة تنسجُ الخبز، التعرّقُ اعترافي، أنا حُبيباته على جبين بـارد، أنـا فـاكهـة التعـب، غبطـةُ المطمئنِّ، البرهـةُ الحـاســمـةُ في توقِ الجريحِ، من قال لا لون لي، أنا مرايا اللون، الأسود بياضُ بياضي،
لولاي ما كلّل حزناً ولا عُلِّق على صدر بكّاءَةٍ،

أنا كوَّزْتُ الأصفر في البابونج،
البنفسجُ خاملُ أزرقي، والبنيّ أحمري الخائف والـ...
اسألوا
القزح
من
قَوَّسه؟

الماء الثاني

مالَكَ يا ماءُ، خفّف من أناك الذبيحة،
مَنْ يصغي لنحيبكَ في الدّفلى،
مَنْ يعرّي القصب كي يرى حُلْوكَ الذابل،
وإذ لا رائحة لك،
كنت أنا الفائحُ تحت الآباط تتّحد على فكِّ لغزي،
إذ لا طعم لك،
كنتُ أنا سُكّر الجسد،
وإذ لا لون لك،
كنتُ أنا بذرة اللون،

لا تبكِ يا ماءُ، المزاريبُ شامتة،
وقل لي؛ من احتفى بك
وأنت تغادر حبوك في الينابيع إلى ركضٍ صاهلٍ في السَّيْل،
أنا كنتُ حبر الكلمات وفحواي بشر،
أرتّب العالم كما أنبغي، وأنت ملجومٌ بسدّ،

على مــن كنت تومضُ يا ماء؟ ومن يقدّر خنجرك العذب في الغصّـــةِ، تعبك وأنـــت تعــدّ لهــذا الليــل الجاحد، برقاً وسلالمَ من مطــر، كنتُ أنا حليبَ الذكــورةِ نافــراً في النّهد كي يدخل عاليَ الحلمة في الأنوثة، عاليَ الفطام في زين الشباب، والجليدُ سجنك، كنت الدافق المستحبّ أنضجُ في الملامسةِ، ثالثَ الإثنينِ في الخلوةِ، والفحولةُ تاجي،

يا ماءُ لا نبيّ عندي لتغتسل في كفّيه، يا ندمانُ تكابرُ في القطرة؟ صـرتَ وكفاً في الســقوف، آســناً في الأنهار العاطلة عن الزرع، كنتُ قبلَكَ!، كفَّ عن

نقيقك، ودعني أُكملُ بلا جنازة موتي، نحن ماءانِ مغدورانِ، أنتَ بالمحل الدائس
على سواقيك، وأنا ببلادٍ كهذي.

تراجيدياها

[1]

منذها الصوت:
حلمتان تنفضان غبار الطلع
ناقرتين شبابيك العزلة
مؤرجحتين بينهما صهيلَ مطرٍ حرون
هسيس موج يدخل لَيْلَكَ قميصِها
«بغبطة» يمارسه تجعدُه الجديد
رجفات تراقص رغبةً مجنونة في العظام

وقع الندى على مخمل تنسجه «في الوراء» أنفاسه النافرة
رنين الثلج في الكاسات
شهقات الصدأ المطرود من الأوصال
غرفة من زقو
جاران يتراشقان النبض، «غيرانَيْن»
من حمحمة ترشح على الجدار المواجه، صفيراً حنوناً
«كأنّه غزل الصواري»
صدىً يقرع نواقيس المكانْ

[1.1]

مالها أحدٌ!

لا صوت، إلا ضحكات ورق
يلاحق على الشرفة بعضه الراكض بمرح
« كأنّما في لعبة ما قبل الموت»
استغاثات جذور الحبق الضائق ترفس في التنكات
أنين يشبه فحيح جسدين
يهرّ من عقارب، تثالث بعضها، تتناوب،
«وفي برهة» تضاجع ساعة الصفر المصلوبة بشبق على الحائط
مواء ناعق من قطّة جوعانة في الحيّ

نحيب الحجر المنكسر، يتدلّى، يرقب كماسح الأحذية،
أقدام العابرين، لا ينصت للشارع يغريه بامتدادٍ حين يغفو
على رصيفها، حالماً أن تلمّه أقواس خطو بعيد، كي يتباهى كدرج
ثمّة، تأتأة أجراس، تخدش خلوة الزمان.

[2]

منذها بدأ الشجر
ينهر الأزرق الأعلى
وضدّ صيف ماجن
يبني خياماً من أخضر، يتمرّغ على مشارفها
« مثل مهرة مراهقة« كي يدخل مملكة الظلّ.
ولأنّها تساعف الأخضر
صار ميّالاً لعينيها
ثم تَعَوْشَبْ

[2.2]

ما لها أحدٌ!
الفانوس الكابي في الممرّ القليل، يلقي..

مثلَما على خزانتِها العذراء،
على معطفهِ المشنوق قرب الباب
على حذائهِ المعنكب في الزاوية
على ورداتٍ من دم عتيق «نزفتها كنمش قبضته على المرآة»
على كأسَيْ آخر سهرة
على فنجانِ قهوته المقلوب عند الساق البعيدة للسرير
على لوحتِه المفضّلة
(في العمق سكّة قطار، يستلقي عليها، خاليَ البال، عنكبوت في نهايات أقدامه
فردات أبواط، ثقوب خيطانها أعين بشرية)
يلقي على الشاردِ في المليح من وجهها طيوفاً
من الأصفر الباهت تلوّن خيط دمعها بغامق الوحدة.

[3]

منذها خاب حظّ المرايا
كان يتمرّى بعينيها:
لو تغيّر موضع الشامة
صار في قبّة الخدّ
لو تصغر الشفة السفلى
إلى نصف فستقة
لو عادت الغرّة
حتى تظلل كفّه الصافنة على الجبين
لو يشاكس مرّة حكمة أنْ: (كلّما ارتفع الأنف طالت العنق، وهاجت السكين).

[3.3]

مالها أحدٌ!

تفلّي على ركبتيها دفتره كي تراه، ملتفاً بحبره،
خائفاً من زمهرير الكلمات.
تدخل غابة الإهداء كأيلة سارحة تقلّب رمادها عن جمره:
ثَمَّة، متّسع منه، ضيّق على خطوها الناعم
ثَمّة، بكامل نحلها حطّت على وردة واسعة التويج، لم تكن قَبله
ثَمّة، بكاؤه ناشقاً:

«كم شروداً قتيلاً»،
يحتاج هذا النعاس كي يقفل بدخانه خرائب الروح
ثَمّة الغربة، بغرور تدخل الكتابة كبياض،
ثَمّة، اعترافاته: إلاّ أمامك لا أنكشف عني، نَزِق واغترابي بابي، بعضي يفتّش عني،
عن صبيّ راهق تحت إبطيها ويدرّج حمامك إلى طُوقِ أناي،
يزهو في المتاهة مثل طاووس؛
ويحتمي بشوكات مزاجه، حين يراوده أمامٌ ماحلٌ عن فسحةٍ منها.

[4]

منذها الغرفة
تحتشد به

[4.4]

مالها أحدٌ!
يناكدها القفل الأعور
شامتاً بنافذتها المفتوحة العينين،
وبالبهاء اليابس في الخشب
لا شيء يطلّ
غير ريح مائلة،
تقايس انتظارها العجوز

ورأس سروة، غبَّره التطاول
ينحني كي يتجاذبا
أنين أعشاشهما الخاوية

[5]

منذُها الخمر
عاشق في مقتبل العرق
يأتي وفي زنّاره يد الأم وقنّينة طافحة
تمازجه
فيعلو بها شاهق النخب
ثم سكرانة
تنقّط تداعيها الداكن على حوافيه
يبني على صدرها قلاعاً من الدمع
وتهدم كلّ أبراجها
في مهبّ يديه

[5.5]

مالها أحدٌ!
القدح التي على وحشة
دائخة بين نبيذٍ لحوح
وذائبِ حمرتها يتدحرج على نهدين
«ياما تلاقيا بين كفّيه»
«ياما أسكراه»
«ياما أسنداه لمّا ترنّح»
نهدين، يلفحان ببارد الخيبة

فخذين،
«ياما تخدّد، وشاغبت جديلتها على خدّيه»
«ياما سوّرا نومَيه وعلّماه الدلال».

ثلاثية آب

[1]

كلّ شيءٍ ناضجٌ
الفاكهةُ المدلّلةُ
عزيزاتُ العنب، والسّرابُ
ملامحُ امرأةٍ تقطنُ على بُعدِ خريفٍ
والذكرياتُ التي اقترفت الظلَّ فيها
وانحناءاتٌ تمرّ ببالي
فأقوّسُ صورةً بين أصابعي

وأخترعُ نُعاساً تحتَ سقفٍ من لهب
وناضجةٌ الخطا في سلال الزّحام
والسيقانُ المرحاتُ وهنَّ يُؤرْجحنَ الهواء
حتى الحصى ناضجٌ
إلاّ الدمعُ ما زال فجّاً في العناقيد
المدلاّةِ فوق عيوني

[2]

تلافحُ شمسٌ نصفُ غاربةٍ
الظلالَ التي تغادرُ قاماتِها وتذهبُ بعيداً
في النعاسِ

وبعضٌ من عصافيرَ نحاسيّاتٍ
ينْقرْنَ المناماتِ الذّابلةَ على حافّةِ الشرفات
ولا لهبٌ
إلاّ ما تترُكه وراءها الحسراتُ
وهي تعبرُ الظهيرةَ منهكَةً من الشّغْلِ
وحدَهُ الماءُ
يقبعُ في جليدِه
غيرَ مكْترثٍ بأحدْ

[3]

ما مِنْ آب
إلاّ وكانَ طويلاً حتى ضجرِ البحرِ
وكانَ بوسعيَ أن أنسجَ غيْماتٍ
لأسقفَ بها كانونَيْن واكفَيْن ندماً عليَّ
وعلى مهلٍ أن أجهّزَ فخّاراً لائقاً بالعزلةِ
وللموقدِ حنيناً كافياً
ولأيلولَ نافورةً من حبر

فصل خامس

مثلما دودةٌ لحاءَ مشمشةٍ
تنخرُ العزلةُ شغافاتنا حتّى مداراتِ الحبِّ الأوّل
فتنسربُ من ثقوبِ ناياتٍ متّكئاتٍ على أصابعنا
الذكرياتُ

والمناماتُ التي أيْقظتنا جفْلانةً من جليد المرايا
وينسربُ الكلام

خَشِنٌ هذا الهواءُ
يخدشُ الوردَ المُهرْوِلَ إلى مواعيدنا
يخدشُ الندى
والصّدى
والمطرَ الوثيرَ
يُجرّحُ حتّى توائمَ الكرزِ

حرٌّ وجاسرٌ
هذا العجاجُ
يناعمُ ممالكَ من غبارٍ على وسائدِنا
يمحو في الأجسادِ غضارها
يرقّصُ زَوْبَعاته على نحيبِ جِرارنا
وهي تمزّقُ فخارها حزناً على الترابِ القتيل
وكدربٍ عتيقٍ
ينسلنا من قميص المسافة
نذرفُ فيما نذرفُ
ملامحنا المهتوكةَ بوجوهٍ ليسَتْ لنا
حَوْرَنا على مراجلِ الفحمِ
ثَلْجَنا المترف على جبالٍ لم تنحنِ كي نقلّدها
وصايا الوعولِ النافراتِ من المرابط
انهمارَنا الجهم على سفوح لا تليق بمسيلِ الحبر

وتهلّلُ وديانها لنجاةِ الحمام
أحزاننا المائعة كصيف
نواحاتٍ ليليّةً حاولت أن تبني سماءً خاصّةً بنا

نذرفُ كما تذرفُ رمّانةٌ
آخرَ عصافيرها وفحوى الجُلَّنار
على بلادٍ تخرجُ بارعةً من حروبها الناشفة
بلادٍ تمتدُّ حقلاً من ثعابين فَحَّاحةٍ على هواها
بلادٍ مخلوعةٍ على كلأ الصحراء
كعباءة مبلّلة بالملح
بلادٍ
ليست
كالبلاد

يحدث أن تفاجئي

يحدثُ أنْ تفاجئي
فينزلُ دَرَجَ الشتاءِ
يذرفُ من رياحٍ خفيفاتٍ
آخرَ عاداتِه في ملاحقة المطرِ
يعرفُ أنْ لا بُدَّ منكِ
فيُهاوِدُ نحو ثلاثينه
حتى يفرك على كاملِ تضاريسكِ
وَرْدَهُ المقطوفَ على عجلٍ
نيسانُ

يحدثُ أنْ تفاجئي
فينسى
كَمْ قضى من المنافي في الشهور

وكَمْ كان رخواً على عرائشِ العنبِ الكئيبِ
وكَمْ علَّقَ مناحاته على شجرِ الغبار
يُرَتِّقُ بالعشب أسمالَ فضَّته
يُجرِّحُ صدأ البراري
ومُتّكئاً على حَوْركِ
يصعدُ كي تفرطي تحته قلائدَ حزنكِ
القمرُ

يحدثُ أنْ تفاجئي
فقميصاً للّهبِ
مرعىً لجيادِ الرَّعشِ
مندملَ الخناجرِ
ينهضُ من فتاته خارجَ ظلّكِ
الجسدُ

يحدثُ أنْ تفاجئي
فتحزمُ باقاتها
إلى شُرفاتٍ تُطاوِلُ قاماتِ أحبابي
تسيلُ من نواقيسَ عاطلةٍ عن الرَّنين
ومن شفيف خيامها
تنقطُ دمعاً على شفتَيْن راجفتَيْن
وجمراً حافياً من رمادِه
تحتشدُ قبالةَ شرودي
الذاكرة

يحدثُ أنْ تفاجئي
فيشاهدُ

بمناديلَ مبلّلة بالخيبةِ
يمسحُ جهة انتظاره
ومُنْحسداً على طوله كفائت
يتلقفه الرَّصيفُ العائد من بيتكِ
الموعدُ

يحدثُ أنْ تفاجئي
فتنسلني من رمادي
تُلملمُ ثلجيَ اليابسَ على قرميد القصائد
تفتحُ أحراشَ ورقها لثغاء أصابعي
تشدُّني من لَسْعة الصمتِ
ودمع مرايا ثكلت ملامحي
ومن نوافذَ نصف مجروحةٍ
تطلُّ بي على دفاتري القديمة
وقبل أن تُفتّش غيماتٌ بعينيك عن كهوفٍ لتبيتَ
وقبل أن يتنشّف حول هالَتك
مطرٌ تجاوزهُ السّرب تهطلُ
اللغةُ

يحدثُ أنْ تفاجئي
فما أنا
أنا

في الخراب الآجلِ
للرَّجل كاناته

كان لا يعرف
متى أدخله الحنين كاناه الأولى،
وأين يعذّب هذا البهاء أكثر،
ولا متى حاوله الخجل،
والأعاجيب هل تكف عن دخوله ناعمة ومشتهاة،
وهذا الحبل من الغصّات متى شُدَّ على عنقه الضَّيق،
والمرايا أين تذهب بالنصف الآخر من ملامحه،

والدوار المتقافز بالرأس،
هل شاءه بعد الفطام، بعد تعلّم الساعة،
أم قبل أن تصبح الأرض إهليلجاً،
أم دوَّرته خيوط أيّامه الملتفّة على مغزل الجَدّ.

كان الحائط الغارق في التّرحل
أقلّ من اتّكائه، والورق الهارب من المهبّ يقاسمه صراخاته:
«أستحق مجداً صغيراً، وأنثى تُعَنْقد نبضها على كتفي».

في الكان الهرمة
يفتش عن نقيضه في الممرّات الذاهبة إليه، ليهديه انسحاباً مهيباً، ويدخل في البلاهة، نابياً كقمر يكشف عورة الكلام.

كان طائلاً في الدهشة؛
«إنّ خراباً يعلّقُ الأرض من حصاها، إنّ مطراً محايداً يسقف عالي الجباه بالتعب، إنّ خطواتٍ تسحب ظلالها من تحت هاماتٍ تطول في الخيبة»

كان إذا انحنى
تحدّب سروٌ، إذا مال يغترّ وحيداً لنهره شيّق الماء، إذا تلكّأ تفضحه مهارة القُبلة، إذا حنّ، يناسجه في الغياب رعش حميم.

كان سيد ما يكون،
سيداً للندامة،
للأنين الزائد عن مرثاته،
والشهوة المستحيلة في الدخول إلى اللعب،
والكنوز المتوقفة على قتل الضباع،
سيد خساراته؛ في المرأة، والصديق والاحتفال،
سيد ما يسود من الصبر على نزق الغريب،
سيد الممحوّ من رسائله إليه.

كان الوحيد مرّتين،
حين ألقوا بحبل سرته إلى كلبة في المغيب،
وحين سهت العشيرة،
فطوحت مع لحمة ختانه بخصيته صوب التراب البعيد،
ومن يومها،
صارت تستبدل عيناه، بالتفاح الذابل على أمه،
خصيات،
ويتبع كعبيه في الليل، كلاب عاوية،
تقلد برتابة بكاءه القديم.

في إحدى الكانات،
تحاشى أن يداعبه الثلج في العتمة، فانتهى إلى بياض،
لا يشبهه ورد، ولا ملائكة خفيفة الظل، ولا الحمام،

لقد كانت في مطلع أنوثتها، بهيبة لائقة،
تعدُّ تفاصيلها في خربة يديه.

كانٌ فسيحة،
تصــغر على اعتيـاده الشــغب، والألفـة المتـاحـة، والتلـك تنفض عتـابهـا في منتصـف نعاسـه، ثم يكبر على بعد غربتين من السـر المبكّر، متأهباً لأن يغفر للعشـبة كسـلها في الأخضـر، للماء مداعبة المقابر، وله المتعة بأن يركل الهواء على قفاه،
ويمضغ على مهل شفته السفلى.

الكان المهملة
حيث تشيخ الثعالب في المقهى،
ويقبل غبار الأنخاب، بفضول وقح يحط على الكاسات،
حيث يبجّل الاعتقاد،
بأنه ليس هروباً من دمها تركض هذي المدن،
وأن السماء العابثة بشعر الجبال، تدلّل زغب البلاد،
يعرف أنه هو مستريح من الغيرة، والأسئلة،
ومستريح كذلك من قرابين الخراب.

كانُ ما بعد،
مفتوحة على ولد شامت، بالنعاس كيف أقفل ممالكه،
هكذا بأبّهةِ شجاع،
وراح يتعاطى جثثاً وينابيع، وبعضاً من مساء عزيز،
مفتوحة كذلك على اتّساعه في الحطام،
على فرح يرغمه بانتباه لحوح،
إلى حشائش تشيب، وعتبات تغادر هدنتها مع طريق يبتلع اللهاث،
والصغيرين،

والذين تاهوا،
والذي نسوا في الغفلة أسماءهم والحليب.

براءة الكان،
تعيده إلى فوضى دبيبه،
إلى مالا يُحَدُّ من عينيها تحلان في الغمام الضيف،
يناوش بالندى أعناق وردة غافلة،
يلم شتات أوجاعها إلى قوس غرته،
براءة الكان كينونة والحاضر فسيح،
لنجمات تعقد دبكتها،
لدمع يرطب الساحات، للملح يجر خيطانه على الياقات،
لما سوف يكبر أو يتوارى وطناً يشكل جغرافياه،
شامات وحبراً مسحولاً من قدميه
على ورق كالح في الخريطة مصلوبة على الجدار،

براءة الكان كاناه،
طفلاً يساكن في المراهقة نبتاً، وبقايا ما يرث الشوك من فتات الغيم، معوجّاً كهو،
نادباً يا كينونة كان، يا هي،
أنا سيدي وسيدتي أناي،
أنا أكون ولا أكون،
أنا خراب خرابي،
أنا فاتح اللحظة إلى آخرها،
أنا كائن فحسب.

فسيفساء العزلة

إنّك لا تمضي!
كم لا تبتعدُ؟
مُعلّقٌ أنتَ بأمراسٍ من نزيفكِ إلى نِبالها
فكلّما التفتّ وراءكَ،
لاصقتك بالمقابر والنباحِ،
بقناديلَ منكسفاتٍ
وحمحمةِ جيادٍ هرمت في المعالف،
ونحيب ندّابةٍ يُخالسُ
ثمَّ يدرجُ خلفَ أعقابك

إنّك لا تمضي
فما تزالُ تحاذيك عصافير مُدمّاة على السّياج
وسروٌ، ما قال: أحمل عنه هذي الانحناءات حتى آخري،
وظلالٍ أنت ربّيتها كلُّ شبرٍ بسروةٍ،
ما تعنّت وألقت بعضاً من هوامشها عليك
وندىً، أنت شاتلُ قمصانه في أقاصيك
ما تنقّط على لسانك الخشن،
أو تكفّلَ بالدوران حول مهبّك.

كم لا تبتعدُ؟
تناحتُ صخرها عن غزالٍ
فيعوجّ ماؤك
تقطف عناقيد جمرها
فتصبُّ أصابعك في الرّماد

ومن قرنَيْه، تعيد الموجَ الفالتَ إلى بحرها
وتُصرُّ هي على جزيرةٍ بحجم قدميك.

إنّك لا تمضي،
تُعدَّان
هي، مساميرَ من ذهبٍ
وأنت، قفزك الرشيقَ
هي، ستائر من غبار وأنت، النوافذَ
أنت، لدانةَ الأخضرِ وهي، مقصات البَرَد
أنتَ، النزهاتِ، وهي، حدائقَ واقفةً، هكذا، مكتوفة الشّجر
أنت، الملامحَ لها، وهي، الطفوَ كورقٍ متّسخ بالأبيض، على مراياك

كم لا تبتعدُ؟
فكلّما ناغلَك الحنين
تقنطر بين عينيك بكاءٌ ناشفٌ، يسودُّ فوق زفير قديم
ولأنّ الحصى فاكهة الرحيلِ لم تحملْ سلالاً، وسَّعتَ ما بين الضلوع،
وأسكنتَ ما تبقى لك من هوائها الفاخر،
ولأنّك شبهُ مائتٍ من البرد
تذكرُ، وأنت تجتاز الزمهرير، كيف خلعتَ عليها فروكَ النبيل.

إنّك لا تمضي
فمن يغادِرُ، لا يباطئ في العشبِ،
لا يساعدُ نحلاً على بنفسج
لا يعصر عيدان شوكها على ظهره المرقّع بالطعنات
لا يتناعسُ عند أول مفرقٍ بازغٍ في صبّارة الوردِ
لا يتأبّطُ خبزاً،
لا يسائل عن جرار في التخوم

لا يقلّدُ بالصفير مغازلة القصب
لا يصغي لقلبه الحسيرِ كخزانةٍ مخلّعة.

كم لا تبتعدُ،
فما تزال تحدّد من بعيدكَ الشرفات التي تسهرُ
وتلك التي تُناولها الصبحَ،
وتعرفُ من أين تدخل الجهات إلى مطارحها؟
وكم لَعباً بينك الآن وبين تفاصيلها؟
وفي حضن أيّ الجبال تخبئ الأقمارُ أهلّتها؟
ودون أن تمرّ على الصدغ سبابتُك
تحدّد بيت الحبيبة

إنّك لا تمضي
فحين تُطعم الحمام المرافق كلَّ قمحكِ
فأيةُ مسافةٍ ستقطع خطوك النحيل؟
وحين تلتقط النجوم النازكات حتى لا تخدش وجهها
فبأيّة أصابع ستحفن رمل ذكرياتها؟
وهل سيزيد على غصّاتها الغناء،
حتى على مَسْمعٍ من ثعالبها، ترندح؟
وحين تنسى أنّك مصابٌ باللغة ومفرطٌ بالصمت
بماذا تدمدم وأنت ترفع ذيول أثوابها
عن بُرَك الحبر؟

الحائط

2006

إلى ولدي وارف

الـورق

ظلّوا يقولون:
ضاقت أنفاسُه بالشجر
ملَّ ثيابَه الخشناتِ، والبنيَّ الدائمَ فيها
فعاف ناسغَ أيامه في عروق الخشب
واحتملت أوصالُه الغضَّة
هذا الحدَّ الطامع في المنشار
حتى يجرّب شهوة الناصع، مصقولاً تحت
عيون البشر
فَرقَّ

ظلوا يقولون:
رقّ
ورقّ
ورقّ
حتى بالأيدي ذاتها
وأمام نظراتٍ ما انكسفتْ
أو حتى غضّت قليلاً من تشفّيها
صرتُ ألفظ سطوري الأخيرةَ
كما صفحةٌ تُطوى على حتفها
كأنما كنت قرطاساً من مِلْحٍ
وذاب

الطريق

انظروا إليه
كم هو لدنٌ ورشيق؟
يدور على الدنيا بكاملها
فلا يدوخ ولا يستريح

انظروا إليه
كيف يعبر كلَّ الفصول
عارياً
إلا من تلابيب المسافة؟

انظروا إليه
كم هو مرهف؟
لا يتحاشى
حتى مشاوير الورق

انظروا إليه
كم هو نافذٌ في البصيرة؟
يرانا من خطانا
انظروا إليه
كم هو بلا نهاية؟
كم يخلّصنا
من وهم المنتصف؟

انظروا إليه
كم هو صلد وجسور
يشقّ خصور الجبال؟
كم هو رقيق

يجاوره وردنا؟

انظروا إليه

كيف على مهَل يعدّ الجهات؟

وبلمحة نتناولها

بمنعطف يغيّرها

ونبقى نشدُّ لواحدةٍ رحالنا التي من غبار

انظروا إليه

كم لا يتراجعُ؟

ولو كنقطة سوف يعانق الأفق

وكم، أكواماً من لحم وحلم

نتقهقر

حين يُسحب من تحتنا كبساط؟

انظروا إليه

من منهما يحملُ الآخر

الأرض بطولها وعرضها

أم هو بيده الواحدة

انظروا إليه

كيف لا بدّ أن يلتقي بسواه؟

كم علَّمنا أنّ المتاهة بالعزلةِ؟

كم يعلّمنا الوصالَ لا الوصول؟

انظروا إليه

كم هو واضح؟

أدرب هو

أم جنح شمس يجول على التراب؟

انظروا إليه
مندا ساً
ومهاناً تحت زافت الحظّ
ومن أوّل قطرة
يفوحُ بالمطر
انظروا إليه
كم يتحمّل؟

انظروا إليه
باعوا على طرفيه الحرير
وما زالت له شِعابه
تجرّ عليها ذيولَ أثوابها
عرائسُ القزّ

انظروا إليه
كم مرّت عليه
قوافل من سفر تقاعست عنه الجِمال
هوادجُ تحدوها مواويل المراثي
سبايا بلا وجهة
ظلالُه في خرائط الفاتحين
الماشون عليه بأصفاد من ذهب
جحافل حاولت بالصهيل الجائر، أن تسلخ
طوله البارعَ عن الأرض
أقدامُ الناجين من الثغور
عرباتٌ حملت سرير الغزاةَ
فرارُ الذين ناحفوه حتى العظام
ولم ينقطع عن الذهاب إليه

انظروا إليه
كيف يجرّونه وراءهم كذنَبٍ
يرسم في الصحراء دوائر
لا تسكنها إلا
زوبعاتُ
الرحيل

الشجر

المتسامق، يحاول حلماً، أن يصل ربّه
الحامل على ظهره الأخضر طوال الفاكهة،
غير آبهٍ لصرعة الحفيف، ولا لعناد النحل،
ولا لمجاهيل الفضاء الجهم،

ظلّ الظلّ،
الماسك بأصابعه لبَّ الأرض،
الكريم حتى على الفأس،
المغضّن كوجه جَد
نسّاج قميص الغابات
الطارح
الوارف
الواهب الرئات هذا الفرْق الجليل
بينها وبين الإسفنج

أنتَ،

ما طِلتَ كي يقيلَ تحتكَ منشارٌ، ولا ثعالبُ متخماتٌ،
أنتَ لم تتنوّعِ كي يُنجِّروا من ذكر السرو خوازيق،
والأوتادَ للريحِ،
أو يؤثّثوا بريعانك ممالكَ من رملٍ

أنتَ،
الوحيدُ، يدوِّرُ تاريخه فيه،
الوحيدُ يتنازلُ عن لحائه دونما خرفٍ
ويقطع عارياً هذه اليابسة،
الوحيدُ
الواقفُ فينا

ها إنكَ تمضي،
لا أكثر من قاماتٍ لخشبين،
لا أكثر من حطّاب لهذا الهواء،
لا أكثر من أعرجَ، منخوراً بنمل العزلة،
فما وهبتكَ وافياتُ الحور
ساقاً خشبية أخرى، لتنقذ أحفادكَ
من براثن الفحم.

القمر

هو لا يعرفُ،
أنَّ قمراً لا يُعلِّقُ فضَّتَه عليها، وتمدُّ أعناقَها
المصابيحُ، كي تتَفَرَّجَ،
لا يتباهى،

هو لا يعرفُ،
أنَّ التقوّسَ كهلال،
عادةُ غُرُّتِه

هو لا يعرفُ،
أنّ شمساً يوقظُها رنينُ القُبلاتِ،
سوفَ تسحبُ غبارَها عنْهُ،
ينكِّسُ كثبانَ غيْرِته، ولا يتمسّكُ بقطعةٍ من سماءٍ،
يلملمُ أطيافَه، يحشوها بصرُّةِ البَدْرِ،
يؤمِّنُها عندَ بناتِ عمّهِ، النجماتِ،
ويتراءى
كعرجونٍ
عتيقْ

الرَّصيف

والبارحةَ،
كان يتناعسُ عندَ أقدامِ جارتِه الحديقةِ،
وتحكي:
«أنَّه في القديمِ، كانت العصافيرُ تتمشّى عليه،
والعشّاقُ يَزْقونَ فيها»
لم تقلْ،
إنّها ستكفُّ عن فيْئِها،
وتُلقي عليه كلَّ هذا النَمَشْ،

وأنّ سرواً، ينحني، يعذّبُه بالمُزاح، ثمَّ يعلو،
ولا يقدِّرْ أنَّ عمرَه يُناهزُ طولَ هذا الحَوْر،
وكمجنونٍ يصفّقُ له الورقُ،
ثمَّ كأبرصَ، يحاولُ أن يركضَ صوبَ أولادِه،
تحتَ البناياتِ
فيدهسُهُ
الشّارعُ
المتكئُ عليه

البنفسج

غداً سأخرج على عنق زجاجاتهم
على ذلّي في رقابي الذابلة على حواف كؤوسهم
على أصابعَ تتهادني دون أن ترفع ذراعها
حتى الشوك يكشّر عن مآبره
حين لا تجيدُ الأصابع اقتلاعَه

غداً سأخرج من أماسيِّهم
تاركاً مكاني
لما صنَّعوه من الورد

غداً سألملم كحلي من عيون الأغاني
غداً سوف يقولون؛
«كان هناك بنفسج»
فأنا سأكفّ عن البهجة

ولن أُقطف إلا مزقاً من سفوحِ جبالي
فربّما سقطت عني تهمة الحزن
من بشرٍ، هم الحزانى لا أنا
مساكين
لا يعرفون رائحة اللّون

الدم

أنا،
وقاحةُ الجلَّنار،
أنا،
راودني النعمانُ عن بهْجةِ الحنَّاءِ، فلوّنتُ شقائِقَهُ،
أنا،
ثلجُ المساميرِ في جَسَدِ المسيح،

أنا،
غارَتْ وقلَّدتْني، منْحنياتٍ ومجداً: الجبالُ؛
وقاماتُ أحبابي
أنا،
خطْويَ النّارُ، وقهْقرايَ جمْر،
أنا،
الأقمارُ في دورةِ الأنثى،

أنا،
المدبوغُ بلونٍ ليسَ لي،

لا أنافسُ نهْراً على مجْراهُ،
ولا حليباً على نهْدٍ،

أنا،
حين تكونُ الأرضُ: كلُّ الأرضِ، نَطْعاً،
لستُ فَحيحَ النُّحاسِ يلمُّ باقاتٍ من رؤوسٍ وبلَح
ولستُ الفاصِلَ بين عجوزٍ يتّكىءُ على حفيدَيْه،
وخاتمٍ من ترابْ،
ولا بين طفلٍ، وثوبِ أمّهِ،

أنا،
لستُ الخيطَ في مسبحةِ الجماجمِ،
لستُ سجّاداً كي يمرَّ الناعقونَ،

أنا،
الغامضُ في أقواسِ القُزحِ،
الفاضحُ في وَجَنَاتِ الصَّبايا،

أنا،
أنا
ثمَّ بعدَ كَوْنيْنِ، يلْفحُني الدُّخانُ والمطرُ الذّابلُ،
كنتُ، النبيذُ وَلَدِي المدلَّلُ،
فلا نزهةٌ تلقي إليَّ فُتاتَ الرقصِ،
ولا حانةٌ تقُومُ لي،

أنا،
أكابدُ أحلاميَ السرّيةَ،

على مَقْرَبةٍ
من بساتينِ القَزّ.

البحر

شاحباً،
ووحيدَ زرقتِهِ، بلا هيبةٍ، وبغيرِ عرائسَ،
يتنازلُ عن ملحِهِ لسَبْخاتٍ مشاكساتٍ،
وعن خشبِ المراكبِ المحطَّماتِ
ونشيجِ بحّارة غرقوا،

ثمّ عن بهائهِ،
لا زبدَ ينقّي ظهرَهُ ممّا سَلَحتْ عليه النّوْرساتُ،
وتفضحهُ سحبٌ كسيحاتٌ،
وانقضاضُ غربانٍ على الخرائبِ
ولا يبوحُ،
يفطمُ موْجاتِه عن رملٍ يُهرْولُ خلف بحيراتٍ
هي من جلدهِ،

إنّه لا يُغري الشواطئ المتثائباتِ في ظلالِ المدنْ،
إنّه لا يدخل مناخاً على الشجر المراهق،
ويغريه بغابةٍ،
أقمارٌ مدلّلاتٌ تمحو شاماتِه؛ الجزرَ الباهتاتِ،
يكبو،
ثمّ بعدَ هذا العمرِ. يتجاوزُ حدودَ هشاشتِهِ،

يحاولُ أن يشدَّ الجبالَ من شعرِها، تركُلُه،
تصرخُ بأعلى ثلْجِها؛
كانت الأنهارُ بَوْلي عليكْ،

يجهشُ بهديرٍ مُنْهكٍ،
ثمّ بلا أجراسٍ وخلاخيلَ،
ودون جَلَبَةٍ،
يخلعُ ما تبقّى من عواصفَ، لا تجدّفُ، ناحلةٍ،
ويذهبُ
ينتحرُ غرقاً
في المحيطْ.

الحائط

سمّوني ونسوا
أني أنا الحائط
كي أحيط بهم
لو كنت بقلبٍ من حجرٍ
فلماذا،
يرمّمون بالصبر أحلامهم المهشّمة

كنت أمزّق فسيفسائي
حزناً عليهم،
تاركاً للسنونو،
أن يرتّق بزغب أفراخه شقوقي
الطينة التي لم ألتصق بها

كانت ذراعُ صاحبِها لا تجيد المسافة

أنا عندما تَوالَيْتُ حائطاً فحائطاً
كنتُ أعلّمهمُ، المشيَ اللائقَ
لا طلبَ السترة
قد تذهب كلُّ آثارهم إلى المتاحفِ
ولكنها الحيطان؛
تتحفُ بالمجيء إليها

هل أخرسُ
من يكتمُ الأسرارَ؟
هل أخرسُ
من يكظمُ الغيظَ؟
يشبّهون بي، حين يتبادلون السّباب
وأنا،
ولا كأنّي سمعت

أنا صاحب ظلّ
كثيراً ما مددتهُ
فوق البغال المستريحة
وعلى رقاب الكلاب الحائرة
ولكنّني، دائماً كنتُ
أغمضُ قيلولتي
عن جبين الرّجال

منذ أن كنت خطّاً مرسوماً بعُود

لأفصل بينهم وبين الغابة،
كنت آويهم من غدرات المكان
وحين اشتدّت عليَّ الرّيحُ
عافوني لزمهرير ما تعوّدتُ عليه
أحاول أن أصدّه
مرّة بأبوابي،
وحيناً باستداراتي عليَّ
وحده أعلاي
كان يقصّه من هدناته
ويسوّي عليّ نقوش

من حيث الأرضُ
جدٌّ مختلفِين نحن
لهم طراوة الطين
وأنا فلذٌّ التراب
عالقون بقشرها
وأنا الواطدُ فيها
ينبطحون، يميلون
وأنا أمنح الشاقول، إذ يوازيني،
شعور الغبطة،
في الهبوط عمودياً عليها

يغيّرون قسماتها
وأنا كلّما عتِقْتُ تشبهني
يحاولون أن يسوّوا كساحَ حظّهم بالقفز عليها
وأنا أشدّها من حبل سُرّتها إليَّ
ينبَتّون، جذورُ أشجارها أصفاد بأرجلهم،

وأنا باقٍ كطَلَل

دقّوا بظهري فولاذ المسامير
قلتُ:
أحملُ عنهم عُرياً ضاقوا به
أسندوا إليَّ فراغ المرايا
قلتُ:
دعهم يروا ملامحهم تصفرّ عليَّ،
ولا يشمتُ فينا الهواء.

كفنوني باللافتات،
قلتُ:
خُرَق
عزلوني عن مطارحهم العامرة بالضجيج
قلتُ:
ليست مسافة تلك التي لا أبتعد فيها

جرّدوني من الأوسمة
قلتُ:
بحاجة لأن تجلو عنها الغبارَ الصورُ
أسدلوا على عينيّ الستائر وغطّوا في المنام
قلتُ:
دعهم، فربّما إذا جرّبوا ليلَين على بعضهما،
يبهرهم الصبح المقرفص بجواري
شوّهوا بالجصّ العلاقة بيني وبين السقف
قلتُ:

تنجبر الكسور التي بأكتافي

لوّنوني،
قلتُ:
فرصة، كي تتخلص
من الكالح في هشاشة القش،
من هذا البياض الحارق في الكلس

كلَّ هذا احتملتُ
ولكن أن تستجير ملهوفةً، بهمُ الأرض
تشدّهم من غضارها بسيقانهم،
تبوسهم من خطاهم عليها
هكذا يركلونها،
ويلتصقون بي كنعوات
هذا ما لا يرضاه على صرحه جدار
فدخت
تحت هذا الفاسخِ من الصّداع

أنا لا أسقطُ،
أنا ابن الصدِّ والردِّ
لا يسقط من عكّازه منه وفيه
متاريسَ صرتُ
فغيرت مراميها السهامُ،
ودائماً كنت قبالتها، كأني الجهات بعينها
وهذي الخدوش التي بجلدي،
محاولاتُ مخالب لم تفهم الرّكنَ

وكم زعزعني الدهر،
ولم أتزحزح قيد لبنة
أطاوع في انخرابي،
حتى كأنّي لم أكن أستردّ أنفاسي في رئة العمران
وكنتُ دائماً أفاجئهم بأصابع البنّاء
كيف دون أن يروا،
كنتُ أنقّل أساساتي معي

جرّبت حظها فيَّ المناجيق،
خلّعتُ عِصيَّ المعاول
وحكَّت لجامها بي وغازلتني الأحصنة،
فلم أفتح لها ثغرة
الثغرةُ في الذين ورائي
كانوا ينخرون بالحجرات التي وهبتها من عظامي،
للوحش والطير، والحياض،
كي يفتحوا باباً للفرار،
وأتفرّج أنا،
على بيوت تشمّر عن حيطانها
فضممت عليهم جحوري

وكم
وكم،
ولكن حين،
رأيتهم هكذا وجهاً لوجه يستسلمون،
مرفوعةً أياديهم قدامي، كأنّما لتدخل بيني وبين المشهد،
فلا أنقضُّ عليه

وحين راحوا، كَلَوحٍ للمجانين، يكتبون عليّ،
بالبول،
أسماءهم
وحين في الآخر نطحوني
لم تعد تحملني أعمدتي
فانهدمتُ.

الخريف

مغروراً بأيلولِه،
يقودُ الرّيحَ مثلَ كَبْشٍ
تميلُ ولا يميلُ
لا يضلّلُ، بيده المجدُ والفاجعةُ، وغِوايةً،
يكشفُ عن عورةِ الأخْضرِ، يقلعُ عينَ النوافذِ،
يُقْبِلُ حتى النجاةِ،
ولا يتمادى،
إذا يفرشُ أذياله للصقيعِ،

لهُ أن يُفتّحَ شهوةً في الضّفافِ
أن يكُونَهُ
له أن يُرَقّصَ زوبعةً، أن يُقلِّدَ نياشين البروقِ،
أن يُضيّعَ الجهاتِ عن مطارِحها،
أن يكُونَ غدَه،

ثمَّ له أن يَدْفِنَ رأسَه المُهشّمَ في الحذاءِ المغبرِّ،

دَمَاً،
وأشلاءَ مَطَرٍ،
إذا يُناطِحُ فَيْضاً من تشارينَ
لا تُردُّ في حضرةِ هذا الرجُلِ القارِسْ.

عن النحن

بوسعنا، كما ليس بوسع بشرٍ سوانا، أن نتداعى، ممالكَ، قلاعاً مرتبكات، هرمين كغاباتنا المنخورة، كصوتنا في الأعالي، قطعانَ حرب، وأراملَ، حاناتٍ منكّسة الكؤوس، نوافذَ مطلاّت على مخمل هارب بِلَيْلَكِنا إلى بعيدِه، نساءً بأقراطٍ من صمغ تنوسُ على ذهب قتيل.

وكما ليس بوسعِ بشرٍ سوانا، نتهالكُ،
طرقاتٍ فاجأتنا بالرّحيل الطويل، عناكبَ مرتاحة في حضرة غبارنا الشيخ،
سماءً منكسرة على قاماتنا؛
عكّازها مطرٌ هشّ،
نجماتها نمش،
وغيمها ثآليلْ.

هكذا، وكما ليس بوسع بشرٍ سوانا، نتعرَّف للصباحات
من تقويم دِيَكةٍ مبحوحة،
نشوّه بأيامنا العتاب الحنون،
نتجاذب وجدّاتنا التثاؤبَ،
ومساحةَ الفزع عن شطّار وعفاريتَ،
ونكبو على أفخاذهنَّ المترهلات

كمخدات من قماشٍ عتيق،
لاهينَ بذيلِ أثوابٍ لأمّهاتنا البارعات،
يلمّ أصابعنا إلى قبضة صوب نجاة أسمائنا من غولِ اللقب،
محتالين بالتنكات المثقوبة
على البرد وعصيان الخشبْ.

بوسعنا أن ندوّر أحزاننا، ننسجها على مهل، وكورق هارّ، نتكوّم
في زوايا غريبات، مَحْنيةً أعناقنا كعبَّاد شمس، ساجدين بملل بائت، كقبّعات مخلوعة،
متورّمين من قرصات عقاربَ وثلجٍ ثقيل،
واضحين كبدر،
حزانى كنصف قمر،
تشتهينا الحقائب،
وفي محطّاتنا الآهلة بشخير الليل،
تمشّط القطارات عرباتها بالأنين،
نائمين كبوم الخرائب،
واثقين من نحل يمرّ على وردنا البخيل،
مرتاحين من خبثِ الهداية بكواكب منتحلات تَكوُّرَ ضوئنا،
وراكبات عَتْمَنا كخيلٍ لقيطة.

بوسعنا كما ليس بوسع بشرٍ سوانا،
أن نتبادل والصبايا النهدات،
ونملأ غمّازاتهنّ بعرق الدبكات،
أن نكوّن في قمّاتهن مسيل القُبل،
أن نَنْسُلَ من عَتْمِ نهودهنّ المحارم الخائفة،
أن نغازل سيقانهنّ الغائصةَ إلى حدّ الركبة في دمنا الفائر.

بوسعنا، نحن الهاتكين رأسَ الحيّة،
الكاشفين فداحةَ الواوي، الهامدين في الغربة،
الوارثين كابراً عن كابر تيجان النخوة،
الفاتحين الجهات،
الواضعين سرّ الكينونة في الحبر،
والأسماء التي لا تعدُّ في الصبر والوحش والطير،
بوسعنا أن نعلّق صفوفنا خيوطاً من دمٍ على قميص الوحيد.

بوسعنا، حيث لا ظلّ للظلّ،
أن نقصّ شموخنا بخيط مطر،
أن نشتهي البحر كنهر مارق على جبل أرمل،
أن ننفخ حنين أصواتنا في القصب،
أن نوصل إلى أبعد، مراكبَ الورق ورائحة اغتسال الصبايا،
وحيث لا ظلّ للظلّ، بوسعنا
أن نرفع عن مرافئ صدئات ياطرنا العجوز،
نعلّم الموج أن يسحب انكسارهُ عن شاطئ يمتدُّ فينا كنصلٍ.

بوسعنا، أن نتراجعَ عن البسيطِ من الياسمين
الخارج على الأسوار،
الداخل في العناق،
عن الصمغ الخارج على الشجر،
العالق فوق جذوعنا،
عن الأحمر المعقّد في الوردة،
الآخذ راحته في الخجل،
عن دمعنا
الحافر أسماءنا على حجر القبر،

الخالص في المراثي،
عن حائط من غبار خلف خطانا الراكنة
كأفراس مربوطة

بوسعنا
أن نطفوَ
أقلَّ من جَرَب،
وأكثرَ
أكثرَ من زبد.

يسمونه عندنا

2008

إلى سرار ولدي الأخير

أمومة الجوريّ

أمّي أتيت لأنام...
فما عليّ من كسر النوم، تراكمِ حتى انشقَّ في الصدغِ واد
لا يردمه إشفاق سبّابةٍ تهالكت من الرعش
ولا اعتصار جبينٍ ناكسةٍ
إبر النعاس الرّشيقات كما إبرك في اللحاف، خرّمت مقلتيَّ
مرّي بأصابعك على جفوني
لن أفطن إلى أنّها تضاءلت إلى حجم الكفّ الأزرق معلّقاً هنالك، على عاتقي في المهاد،

مدّي لي فراشي نفسه
لن أخالس في طيّاته صُرَرَ نقودك وأطواق الخرز
وسِّديني مخدّتي التي جززْتِها من صوف عرسك،
وطرَّزْتِها بالفراشات والحجل
لن يحس خدّي بأن حريرها ترهّل،
ونزحت ألوانه في سماء الزيرقون

غنّي لي
فلن أنتبه لما نسيت من الكلمات، ولا لخلل القوافي،
فكلُّ ما يتهادى إلى سمعي،
صرير سريري الخشبيّ يضبط عتاباكِ الرخيمة
وينهض في حقول الرّوح،
يحمل عنيّ هذي المنامات الكابسة على صدري كعفاريت الحكايات.

احكي لي،
حتى ولو غفلت
لا تتوقفي عن خدَر الخيالات
احرسي بأنفاسك نومي
فربما بكّرت الديكة
ونقرت ما تبقى واضحاً مني تحت غطائك الوثير.
شدّي على شباكنا الشرقيّ أكياس الطحين
استريني من سياط الشمس

أمّي نسيت الفطور
فلا تفركي الزعتر البريّ على طبق القشّ
فسوف يوقظني برائحته الأخّاذة إلى الجبل.

أتيت لأنام...
لا لأرى قامتكِ صارت أقصر من حبال غسيلك،
حتى تنشري جواربي على حجر الجبٍّ
والمخمل الذي كان كلّما عتق عليك حلا
صار فضفاضاً على نهديك
وتراجَعَتْ ورداتهُ إلى بقع كالحة
وزنّاره صار يضيق على خصرك كأنّما ليقطعه.

لا لأحصي على تعدادك الذين ماتوا
والذين خانهم الحظ
وسنوات غيابي
واللواتي فقدنَ الأمل
ولا شيء يزداد فيكِ غير الدمع.

لا لأرى أحفاد هرَّتك
والأغصان التي نبتت في شجرة التوت
والحَنْيَةِ البادية على السّروة
ومطرحِ الأرجوحة الحافرِ في ذراع الجوزة
جرحاً حتى النسغ.

لا لِتسأليني،
من أين لي هذا الشخير المسموع حتى مفْرَق رحيلي؟
وهذا السباب الذي يكاد يوقظ المخفر؟
وهذا الضجيج تحت أسناني كرحيٍ تطحن الجلبان؟
ومن أين لي هذا الشيب البازغ حتى في الأهداب
وهذا الصّمت الذي ما كان لجدّي،
حين عطّله الفتاق عن ترقيص البواريد وحَدوِ الجياد؟

لا لأرى حصوتي التي أسندتِ إليها خابيتك قد أعشبت
وخيوط حذائي الأول ما تزال تتدلّى على كتفي مرآتك كجديلتين
وأنَّ الجوريّة التي باسمي
قد أغلقت جهة بكاملها وصارت مهابط للحمام
وأن َحروف إملائي الأول
قد جرّت كل هذا الياسمين على الحائط الغربي!
أو أرى دفّة المطبخ وقد تناحَل فيها الخشب
وما عادت تكفي لأعلو بها وأتلقَّفَ طُعمةِ الجارة
وبريد ابنتها.

أمّي أتيت لأنام
هل ما عاد بوسعه أن يتحمّل ظهرك ثقل الأمانة

حتى لوّحت لي بمفتاح الخزانة
برّاقاً وقد استّبدلتِ بخيطه القنّب زردةٍ من الفضة

وكعادتك تقرئين ما بين أضلاعي
أوارِب، فتمضين بأصابعي تماماً كما في الحبوِ
أفتحها ينهمر الورق ويندلع البكاء.

نيسان

أنا نيسان
أوّزع كما يحلو لعاشقٍ المطر هدايا
فلا تحطُّ حبةٌ منه على فخاخٍ
بناها الشوك في طريق النزهات
أحيّر بشمسي كلاب الظّهيرة
وفي حضنها ينسى النهارُ
تلك اللحظة التي تساوى بها مع الليل

أمسّح بكفي المريميّة رمد الأبواب
فتنتبه للعشب
كيف يشدُّ بأهدابه الغضّة على العتبات
أرشُّ بالندى وجه الأرض الدائخة من الدّوران حول نفسها
فلا ينكسف الترابُ

أنقّل غبارَ طلعي حيث شاء النحلُ
فتشْهدُ الملكاتُ عسل الصدفة
وأبقى مفتّح الورد أنا

فكفّوا عني،
لا تعلقوا على أوّلي خرائبَ العمّ آذار
لا تشدّوني من سنابلي عنوة إلى حصادٍ نافلٍ

اتركوني
فالكذبة أكبر من صيف

مكالمات لم يردّ عليها

أنا ساعي البريد
بعالي الحزن
أبعث إليكم آخر مكاتيبي،
وربّما أوّلها

وبعالي الحزن
أقدّر ارتعاشَه وجحوظ ِعينيه كمطقوق العقل،
جدّي الذي قطعَ الوحلَ، والجُردَ ومخالسة الضباع،
وفَجأة الحيّات كي يصل القراءة، ويضربَ ثلاثةَ عصافير بحجر
يشتغل كقرّاء، ويعرف أخبار الدنيا،
ويتوَّسط لواحدٍ من نسله في وظيفةٍ
هو الآن، يجفل كلّما رنَّ الموبايلُ
ونطّت بجيب سرواله العفاريتُ الزُّرق.

وبعالي الحزن؛
أقدِّر بقايا أنفاسها كغبش ٍعلى بلّورٍ وانكماشها على السُّدادة كأمٍّ

وناشف الحبر يظلِّل تفاصيل أنوثتها في القامة المربوعةِ؛
فهذي الدّواةُ
منذ الريّش ما غلَّقت رحمها على أحدٍ
هي الآن، تدخل سنَّ اليأس في الأدراج،
المركونة هي الأخرى،
قفلُها دون مفتاحٍ

وبعالي الحزن،
أقدِّر دهشتها،
هذي الجِمال
التي برَا سنامها خرجُ البريدِ
تنيخ الآن تحت إطارٍ في لوحةٍ
على جدارِ متحف.

وبعالي الحزن،
أقدِّر الصمت المطبق في حنجرته
هذا الحمام
فقد ظلَّ يزجلُ حتى داخ،
كيما يُعدَّ بحّةً نادرةً في مقام الهديل
وكي لا يُتّهم بالخرف جنس الطير،
أسلم للقباب أطواقه وخلاخيله، وبعضاً من زغب الجناح
وحلَّق، حتى لم يعد بالعين المجردة، يُرى
هو الآن يقبع في الكتاب المدرسيّ كتاريخٍ مُصبّرٍ

وبعالي الحزن
أقدِّر عبوسها في وجهي،
هذي الصفحة،

كم راودت القلم عن حبرِهِ
كي تتخلَّص وإلى الأبد، من بياضها في العنوسةِ
هي الآن، بلا سطورٍ، بل بلا كلمات ولو من رصاصٍ،
محْزومةِ، لا أكثر من وجهٍ لورقةٍ في ماعون

وبعالي الحزن
أقدِّر أن يهرَّ، عندما أربّت على كتفيه
هذا الصندوقُ
فقد أكلته الوحشةُ
ونخرت أوصاله أعشاش الدبابير.

وبعالي الحزن
أقدِّر شحوبه في العزلة البادية على ملامحه المصقولة،
فهذا الظَرف
تحمَّل أن يكون رضابُه من صمغٍ
أن يُقلب على قفاه أن ينتهك حرمَته قطّاعُ الكلام...
أن يُمزَّق ثوبُه الوحيد وهو يعاندُ في الدخول بينَ العتبةِ وبابها
تحمَّلْ غرورَ الطَّابعِ
همَّ الحفاظِ على السِّرِّ
جحودِ المُرسَلِ إليهمْ
رعونةَ المُشتاقِ
الزِّيَّ الواحدَ،
السِّياجَ بلونَيْنِ
هو الآن يقبع في عنبر المطابع
لا أكثر من كيسٍ نافل.

أنا ساعي البريد
تباهيت، قدَّام جدي بترتيب الحارات أبجدياً،
بقراءة كلِّ الخطوط حتى خربشات الدجاج،
بحفظ المدينة عن ظهر قلب
حبّي الأوّلُ كان بالمراسلة وعمرَها لم تبت في حقيبتي رسالة،
وما تكاسلت ولو كان العنوان في آخر ما عمَّر الناس...

ورأيت فيما يرى العابرُ من الطارقين البابَ مشاهد لا تحكى،
كثيراً ما ألحّوا عليّ وما حكيت؛
والوحيد من السعاة
الذي احتج على أن تصل البرقيات عاريةً،
وعلى المضمون في عالم البريد
وعلى أن يكون المختارُ بديلاً عنَّا في العناوين المغلوطة
ومكان الذين بدَّلوا حاراتهم
كان أنا
وأنا الآن
أقطع باقي وظيفتي حارساً على خزانةٍ لطوابع التذكار

أنا ساعي البريد
أقدِّر بعالي الحزن
ضجر أسمائكم وهي تفرك حرفاً بحرفٍ
في مكالماتٍ
لم يردّ عليها.

أوان الحواس

[1]

مُرٌّ
الملح يسودُّ بالخبز
ناشف العتاب في الحلق
أن تعرّف بك على حياد
أن يظل على رأس لسانك اسم ما يزال طازج خوخه،
تحت الأضراس.

العدُّ للعشرة
ما ينزُّ من ندم تتركه العضة على شفة أو أصابع
رحيق الجوري، يلاك على الألسن
لبّ مشمشة لم يطرق بابه أحد
العنب في النخب المجامل
الترحاب الباذخ
اجترار الخيبة تحت تبغ النهايات
جفاء القهوة المرة
واللا طعم،
مُرٌّ.

[2]

هل كان السلام، هكذا من بعيد
أو لافحاً رؤوس الأصابع

فتاكاً إلى هذا الحد؟
فقد كنتَ تمزق ثوب درّاقة
كانت الأكثر أناقة على الطاولة

[3]

أكانت هذي
هي المرّة الأولى
حتى بكلّ هذا الارتباك
بكلّ هذا المدى من الزفير؟
تصغي فيها للبيات
كيف يثقّب في الناي شبابيكه المطلّة عليك
وأنت تحاول أن تطفئ بالندى الخائف على صوته
حريقاً شبّ بروحك
وهي في عزّ القصب.

[4]

الرائحة التي كانت تتأخر عنهم
تسبقهم إليك
هذان ساقان بنكهة البحر
وهذا شميم إبطين؛ كم فاحتا بالمطر؟
ذاك ضوع غابة على كتفين جربتا معي المسافة دون طريق
هذا حبقك مفروكاً بواثر كعبيها
هذا بعض من حبّات هالِك تنسرب من سحّاب حقيبتها
وحده الجوري
كان نفّاذاً برئتيك

حتى
ورداته، تتاحف صباحاتها
في دفاترك الأولى.

[5]

دائماً أنت هكذا
تختار القصيَّ من المكان، تبتعد لترى،
فهل رأيت
المكانَ ظل ضيقاً، وكذبة بيضاء هذا السور من الياسمين
بطناً ترهلت
لحىً طارئات
أبّهةَ المعذّب
الشامخَ الواضح في النهود المستعارة
العلوَّ كقبعة على الرأس
حيّزَ التربيت على الأكتاف،

فضفاضَ القبل
التجّهمَ في غيرة الرجل
الطبلَ الجوال، منفوخاً كفرقة بوحدهِ
اللونَ الواحد للظل،
كحلَ عينين عليك وليستا عليك
غبارَ الكتب يوحل فوق النظارات النافلة
لفيفَ وريقاتٍ يندسُّ
الأصابعَ، تخالس، وتشتغلُ أرقاماً
تجاعيدَ وجهٍ لم يكن هكذا، قبل ابتسامته العجولة

دمعةً تجري بعروق نقشك في مسند الكرسي
وحرفين لم يندملا على جذع جوزةٍ

[6]

تماماً كما في سادسة الحواس
يتطامن فيك
حدسُك الضَّالُ
جراحُ الحواسِّ السّتِ
عقدةٌ في الجبينِ
طوقُ استِدارتها نحوك
رجفاتُ عناقٍ طويل
وشوشاتُ أجراسها على طرفٍ
احتمالاتٌ هارةٌ من خطةٍ في الوداد
الترابُ الزائد عن قصيدةٍ مجبولةٍ بالأسى

أزرارُ ليلٍ فكّها عنوانٌ ستحتارُ طويلاً ولن تجده
لاوياً عنقك المثخن بالعضّات
وأنتَ تغفو على جذعٍ لجوزةٍ
لم تغضَّ عنك ظلالها
حتى تلتحفها، وتنام،
هكذا
مَحَلَّكَ...

شموع

اللعنةُ
كلُّ اللعنةِ على النور
على أكتافنا كانت لقاءاتُه العابرةُ بالنّار

فكان اللفحُ
وكان أن طلعنا بسوادِ الوجهِ، ذائباتٍ من الخجل
عرايا
إلا من دخانٍ، أعْمانا فلم نرَ أبعد من أصابعنا
أطبق على حناجرنا الرّخوةِ
ليعلوَ بأبهةٍ
وتقصر قاماتنا أكثر.

لقد طاولنا الموت واقفات
ولم يخرج من رمادنا غيرُ الهبابِ الهش
أدمتْ أقدامنا مساميرُ الشمعدان
وصُلِبنا في الزوايا
لا أكثر من فزّاعاتٍ للأشباح.

اللعنةُ
على هكذا نورٍ
لقد احترقنا ولا نعرف:
أكنَّا من شمعٍ أم من دمعٍ
يجبل في صحون الرّاهبات غبارَ الأسف؟

أكان علينا أن نشتعل أم نطفأ في أعياد الميلاد
كيما نعدّ التقويم المائع للأعمار؟
أكنَّا قرابين تنقاد من رقابها إلى بصيصٍ بائخٍ
أم وسائل إيضاحٍ في دروس الصَّبر؟

لا نعرف
فهل كنَّا كمن ينسج بيديه كفنه؟
حين أسلمنا للهبٍ لا يشبع خيطاننا القطنَ
وما كانت لتتركنا نتنازل عن حقّنا بالضوء
ولو انكسرنا
ولو تضاءلنا إلى بُقَعٍ
فهي حبال سرَّتنا
كانت ما تزال عالقةً بالشمس.

السّاعة

كأنّي ما اختلفت عن سواي
أنوثةٌ بالاسم،
مثلي مثل دائرةٍ، أو ألعوبةٍ، أو تحفةٍ في جيب
قلبي يدقُّ برتابة بندول
قَدٌّ لا يملأ العين
كأنما ما كان لي الصدرُ
وما لفتُّ النظر.

دائماً كنت أرى في العيون المشدودة إليَّ

حياداً أقسى من زحام الرّمل
لحظةً ويديرون لي ظهورهم
لحظةً ويمضون دونما رفّة هدبٍ
فأنكسف في الوحشةِ
كئيبة كساعة مضبوطةٍ إلى الوحدة
باردة لا أكثر من مرآب لعقارب الزّمن.

أنا لا حلم لي
أمضي إلى أمامٍ لا أعرف شيئاً عنه
أنا من هذه اليد إلى تلك
وما بوسعي أن أتجاوز حتى جلدي
وهم، لهم ذكرياتٌ وتجاربُ، وحظوظ
بوسعهم أن يكونوا ضد شيءٍ أيِّ شيء
بوسعهم أن يعاكسوا حتى ظلّهم
فلماذا كلّما أضاعوا فرصةً
لعنوا تلك الساعة؟

دمُهم ولستُ أنا
ما كان يسارع في المسرّات
ويجمد في فوات الأوان
فأنا أقودُ الأيام كبغلةٍ عمياء
وعمري ما عرفت؛ كم الوقت
ما لي مواعيد
وما جرَّبت انتظاراً أو صدفةً
ولا أعرف معنى أن يُبكِّر الواحد، أو يتأخّر، أو لا يأتي

فلا ذنب لي
إذا كنت أريهم الخيبات وجهاً لوجه
فأنا لا مشهدَ جانبياً لي.

دائماً من الثانيات أبدأ، لأعود إلى الصّفر
كأني لن أهرمَ
كأني لن أستريحَ من دوخةِ اللّف
لقد درت كثيراً
كفاني.

يسمُّونه عندنا

يُسمُّونه عندنا؛
الوطنيّ
فهو الذي يحفظ عن ظهر قلب
اسمَها في كلِّ اللغات،
لفظَهُ في رقصاتِ الصَّيدِ الأوَّلِ
عناقَ مساميرِهِ على الفخارِ
حدودَها مع الشمسِ

ارتفاعَ قمَّاتِها عن سطحِ القلبِ
احتياطيَّها من المطرِ
أنفاسَ جيادِها في السَّبْقِ
نسبةَ البياضِ إلى السَّوادِ في عيونِ البقرِ الوحشيِّ
نوايا المهاجرين من فيليبَ حتّى بناتِ حِمصَ
سلالاتِ النبيذِ،

ألقابَ الغازين حتّى اختزالَها في تحبُّبِ الملكاتِ
الأطوارَ التي مرَّ بها، القَزَّ والبشرةُ وعُقداتِ النّاي
بُحّاتِ الوجعِ الشَّفويّ بأشعارِ الجوَّالين
مواعيدَ الكمأَ
مطارحَ أقواسِ القَزَحِ
استراحاتِ جلجامشَ على طريقِ النُّعاسِ
وكم دورةً يأكل القميصَ من مغزلِها بين يدي نسّاجاتِ ماري

شامات خشبِها في مجاديفِ نوحٍ
المرّاتِ التي شُوهدتْ فيها عرائسُ البحرِ
يمشّطنَ شعورَهنَّ بحجرِ الشطِّ ويغتسلنَ
فاركاتٍ النهدَ الأيمنَ بورقِ الغارِ
ومرضعاتٍ الأيسرَ عناقيدَ البلحِ
شجرةَ نسبِ غزلانِها
عجائبَها في سطورِ الرَّحالةِ ومعاجمِ البلدانِ
جهودَها في التقاويمِ
الأسبابَ الثالثةَ في الحروبِ التي دارتْ عليها
مسروقاتِها من محارِ الدَّمعِ حتّى الطرازِ النادرِ
لخفَّيْنِ من الصندلِ
تواريخَ سقوطِ الجمراتِ
عناوينَ الكتبِ المحروقةِ
وتلك المسفوكةِ الحبرِ

ولكنّه دائما كان ينسى
ترتيب ألوان العلم
وفقراتٍ كاملة من النشيد

طلل

رائحةُ حِبْرٍ آسنٍ،
شهيقٌ من غبارٍ،
فردةُ حذاءٍ تنامُ كبًّا على جريدةٍ بلونِ الذعرِ
فلقتا ناي
علبةٌ من تلوينِ عطشٍ
حبساتُ شَعْرٍ كالنملِ
رؤوسُ القناني
كعفاريتَ تطلّ من أكياسِ القنَّبِ المُبقَّعِ بنازحِ اليانسونِ

كتبٌ تقلّبُ بنفسِها أوراقَها
نجماتُ اللحافِ
تطلعُ من ثقوبِها عشباتٌ كالإبرِ،
نوابضُ بائخاتٌ
لسريرٍ مُلقىً على قفاه كصرصارٍ ميّتٍ
نصفُ ابتسامةِ الموناليزا
الواضحةِ في القماشِ المُجعَّدِ

أنفاسُ جرذٍ
فاجأهُ انكسارُ الضِّلْعِ الرابعةِ للَّوحةِ
حفيفُ الأسرارِ
وهي تُماسحُ ساقَيَّ كهرّةٍ
صدى نطحاتِ الذكرياتِ للحائطِ
زرعةُ الحبقِ الكثيفِ
لم يبقَ منها غيرُ المفتاحِ المخبَّأِ لي

البابُ الذي يعرفُني
يحاولُ جَنْزيرًا صدئًا
وخيطانَ عناكبَ عشَّشتْ هنالك؛ في المصباحِ المنقوفِ بحصاةٍ

ولا يتفلّتْ مصراعاهُ
إلّا عن رسائلَ مدحوةٍ في شقوقِ الخشبِ
وخيطٍ من عطرٍ قديمٍ
وثمَّة
أنينٌ للحجرِ المُتْلَفِ
وأنا أُغادرُ قبوهُ
هكذا
دَرَجتين
دَرَجتين

التضاريس الكاملة للصدفة

القاسية!
على عجلٍ تعبرُ الصّدفةَ،
والشوارعَ التي تتبادلُ أرصفتها
كي يمشّطها الرنين الفائقُ، لامرأةٍ تفاجىءُ
على عجلٍ تعبر عينيَّ اللتين ترّفان في البغتة
وتعبر ارتباكي،
حين لا أصدّقُ
أنَّ هذه أبّهتُها
تحاذي خطوي الذّابل،

وكمتواثقة
تزخم في الغوايةِ
تخلع حرير عبورها
ولا تلامس مراياها تحت جلدي
ثمَّ لا تنتبه لروحي القافزة
ولا لحطامها تحت كعبين
يشتلان ضجيج ساقيها
في بلاط الرّصيف

القاسية!
لقد هرَّ
الارتسامُ الحرّ للفاتناتِ
وقاحةُ جسدٍ بارعٍ
الشبقُ المواربُ
دوائرُ الشرودِ والرّغبةِ
لهاثُ العزلة الفاخرِ
الزوايا الحادة للهتْكِ
وهرَّ الغبشُ
لما تنحّى البلّور الهائجُ للمقهى
مفسحاً كاملَ الشّمال كي تمرَّ

القاسية!
تقصّ المطر المائل عليها
من متى تحملُ مظلةً؟
ومظلةً لا تتسع إلا لزحامها
وأنفها الجارح الغيمَ؟

من متى لا اثنان نحنُ
نسندُ الشتاء العجوز كي يقطع فخاخ المخملِ؟
من متى بخيلةٌ؟
تمنع الشوارع أن تصافحَ بعضها بالماءِ؟
من متى يدها لا تموء تحت إبطي؟

القاسية!
أنوثةٌ وذابت!
أيَّ منعطفٍ أحنُّ منّي
حتى تكحّله بصوفها الأزرق؟
أيّةُ غرفة ستغفو على رجع عبورها
أيّ مكانٍ سيكتملُ؟
أيّ رَجُل سوف يشتمّ أنفاسي
في عظامها الماهرة؟
أيّ غيابٍ يخجّل ركضي
ويترك الحيطان تتغامز عليَّ
وهي تُدّلي عن الشرفات أقدامها،
وتفركها بمرحٍ
تحت متواصلِ المطر

القاسية!
بلّلتني بالخيبةِ
وعلى باردِ القهوةِ، أدخل الهباء أعزلَ كصمت
لا شامتَ
غيرُ كرسيٍّ أعرجَ، فارغٍ قربي

وخطُ رجعتها المكتوب بهامشِ البُنّ
وثمّة أيضاً
السُبابُ الفسيحُ،
وأنا أحاول أن أجمع كسرات رأسي
المبعثرة في الصّداع.

الثلج

أنا الثلجُ
منذ أكملتُ على هذه الأرض أربِعيني
لم أبنِ
حتى إصبعين على غرّة شجر
كأنّه نسي أن غصونه لم تقدر على حمل خفتي
فانكسرتْ عيدانا
يعقدون برأسها القمصان راياتٍ
يسالمون بها مازحات الرّيح
وينشرون الفزع في رفوف الحمام

أنا
لا أحطّ على الأوتاد
كنت كلما زففت عرائس خطفوها من سرير النّهر
وقدّموها قرابين للملح الزاحف حتى مخدّاتهم
أنا والملح ضدّان
هو كفن الماء حين يموت من العطش
وأنا خميرته
ترضع الحنطة من رضابي
وكنت إذا ما ردّدت صدى حنيني اللقالق اصطادوها

قاسوا بمناقيرها الرّامات الآسنة
وألقوا بريشها في الأجباب

أنا
لست ضريراً
أنا العيون
وكنت كلما اشتقتُ، أنهض في دفاتر الرّسمِ
مساحاتٍ لا يمسّها اللّون
أمرُّ فيما تبقى من حكايات الجّداتِ
خيّالا ًأخرس، يخدش بجواده الأبيض برد كانون
يوزع على الأحفاد بين الثلجة والثلجةِ
قبّعاتٍ، ولفّاحات من الصوف الأزرق، وحفناتِ زبيب

وحين صاروا ينحتون من عظامهم تماثيل لا تذوب من اللّعب
وفي عزّ الحكاية يتثاءبون
قسوت على قلبي الهشّ، وما بنيتُ
فقط لأحفظ ناصع وجهي

أنا
لن أذوب في صفحة مرّتين

الدَّرَج

أنا الدَّرَجُ
أوّلُ من يتنفّس الصعداء
حين يلتمُّ شملكمْ
وكمشغولٍ بالعلاليّ

آخرُ من ينام
كُرمى لزوّاركم
رضيتُ أن أبقى معلّقاً بين السماء والأرضِ
كشجرةٍ دونما جذور
فزينةُ الدَّرَجِ الضّيوفُ

ولا مرّة
تأفّفتُ من خطوٍ منهكٍ
أو من نازلين دونما وجهةٍ؛ يعاملونني مجرّد ذكرى
على هامش حجر

دائماً المائل على غيابكم
أداري الحزن بما تركتم لي من الظلّ
كي تكفَّ الشرفاتُ عن فضولها
وتشدَّ حَيْلها الزوايا
ولكن حين لم ترجعوا
انكسر ظَهري

الذين رحلوا

الذين رحلوا
نسوا أن يُغلقوا الشبابيكَ
ستدخلُ الرّيحُ
وتعبث برائحتِهم المعلَّقةِ على الحيطانِ
سيلوذُ المطرُ
فتبتلُّ الذكرياتُ، ويوحلُ غبارُ حوائجِهم

وسوف تعرفُ الرّيحُ أنْ لا أحدَ، فتبيضُ زوابعَها
وسوف يعلّقُ البرقُ على مطارحِ قناديلِهم خصلاتِه الخاملةَ
وسوف يحينُ الهروبُ
للفراغِ المزيَّنِ بانتظارِهم

سوف تقصمُ الرطوبةُ ظهرَ المساميرِ
التي انحنتْ تحتَ علاقاتِ صورِهم
ويؤطّرُ الصدأُ المساحاتِ التي اختفتْ تحتَ لوحاتِهم
ويسيلُ، ويخدشُ أسرارَ قبلاتِهم العجولةِ
على الحيطانِ الخُرْسِ

سوف يحشرُ الرّعدُ نفسَه في صدى دبكاتِهم ويُدوِّخُهُ بالنشازِ
والندى الساحبُ خيطانَهُ من جرّةِ الصّبحِ،
كي يبني لونًا للماءِ على أصابعِهم،
سوف يتدلّى من الشرفةِ كعَفَنٍ مشنوقٍ

وسوف تقضي الشرفةُ باقي إسمنتِها،
لا أكثرَ من غُرّةٍ لحجرٍ
سوف تمحو أوّلُ مطرةٍ
فجوةَ ارتقابِهم للتلاويحِ القصيرةِ في الزّحامِ
ويبني الثلجُ أحلامَهُ الهشّةَ على حوافِّ استنادِهم
ويُجمِّدُ هديلُ حمامٍ كان قد جاءَ بأفراخِه
كي تتعلّمَ الفضاءَ من نوافذِهم

سوف تستغربُ الشجرةُ
التي عصافيرُها بعمرِهم
فتطلُّ برأسِها، ولا شيءَ إلّا أشباحٌ من جليدٍ
تغتصبُ فُلّاتٍ ألقاها للتوِّ عاشقٌ قديمٌ

سوف يُحلِّقُ الورقُ الفالتُ في الزوايا،
كاشفًا أنّهم رحلوا هكذا بلا عناوينَ
سوف لن يلبس البلّورُ قميصَ الغبشِ المطرَّز بكلماتِهم
وسوف تُجرِّحُ كسراتُهُ مروري

كما غداً

2011

أحجيّة

احزروا ما هو؟
فاكهة وليس بفاكهة
ثلثاه ندى والباقي من عسل البراري
قديم
من قبل التين
أحمر كدم الغزالات
أبيضُ كحظٍ بشوش
عصيٌّ على أسوار البيوت
وما على حضرته سياج

لا يؤخذ قطفاً
وما من أحد إلا اشتهاه وناخ
إذا لاح
هلَّت على اللا كُمِّ أكتاف الصبايا
وعضَّت على الشفاه العوانس وهنَّ يلعنَّ الأبد
خفيف الظل
إذا حطَّ
عجَّل الصبح
وانهمرت على المواعيد القبل

لم يدخل صامتات الرسم
فربما وقبل أن تكتمل اللوحة ذاب
لكنه إذا تنفس جُنَّ الكلام

آخر أخباره
أنهم إذا ما هجّنوه
أو علّبوه
فسوف يموت

هاء الغائبة

لم أكن بحاجةٍ إلى ذاكرةٍ خانها الحدْس مرَّات
ولا إلى شرودٍ
يعطِّل عليَّ أكيداً من شغبك في رجفة القلب
لأعرف أن هذه هي أنتِ
وأنّ دقائق أيّار الأولى
ستأخذني إلى أوانكِ

تخرجين نؤوم العطر من سبْتٍ قديم
لتمارسي تحت جنْح الورد رائحةً لا تباح
وأنَّ رسالةً بلا اسمٍ
ستتركني إلى صمت أقسى من موبايلٍ مغلقٍ أو خارج التغطية

لقد عرفت أنّ هذه هي أنت
وأنّ رقماً بلا سبعةٍ وآخره واحدان
سوف يفرط حروفَ اسمك لألمّها بالأهداب
ودائماً تبدئين بربَّما
وتنتهين بكلمةٍ ذات نون
تكثرين من العطف
ولا تجيدين الفاصلة

وعرفت أنك ترددت قليلاً
فقد جاءت ربّما براءين والفاء التي في سوف ثلاثاً
وأنّك الآن وحيدة
فقد احتلت «أنت»
السطر الثالث وحدها

وأنّك فككت عن حنجرة مثقلة بالعتاب
زرين من قميصك الليلكي
فبعد مسافة حرفين من أول الرابع
جعلت النهدين
لا يلتقيان إلا في برزخ الحبر

وعرفت أنّك فرغت للتوّ من ديوان شعرٍ
وإلا كيف أفسّر
«مزهرية من دخان» في آخر الرسالة
فأنت دائماً
كنت تؤشرين ما يعجبك من الصفحات
بحرق زواياها التي من جهة القلب
بجمر السيكارة. وتفركين الرماد على حواف المكحلة

وعرفت أنّه ليس لي
فقد جاء السطر ما قبل الأخير محض نقاط
لأذكر أنّك في آخر مرّةٍ
سحبت حروفك من تحت نقاطي
وقلت: حيثما رعت غيماتك أمطرْ

واتركْ لي صمتك الشفوي
لأعرف بعدها أنّنا لن نلتقي أبداً

وعرفتُ
وما كنت أريد أن أعرف
أنّ البصر يتكاسل في عينين يماميتين
وأركن أنا إلى (حسرة ما أكاد أحملها)
فلم تنتبهي إلى أنّ الذكريات تحتاج إلى همزة وصلها
وأنّ الأمسيات جاءت بلا تائها المبسوطة
وأنّ التاء التي في الحتّ
إنّما هي باء

الأصابع على منوالها

لا تقلْ اِسمها!
اترك لهذي الأصابع أن تسقيَ ظلّها في المحاجر
وعُدّ على رؤوسها المرّات التي تكوّزت لك فيها
وأنت تستعجلُ اسماً لتعرف نصيبكَ من اللّهب فيه
تقرَّ كضرير أوّل حرفٍ منه محفوراً على جبين الخاتم
قفْ على تائه المربوطة تخرجْ من زورك الآهُ
انبُرْ ما قبل سينه تنشرحْ رئتاك

لا تقلْ اِسمها!
جُسَّ هذا الجوار النادرَ
بين جمرٍ يلفح من تحت الأظافر ورسغين، دائماً، باردتين
جُسَّ في هدأة الأنفاسِ

أنَّ وعيداً آخر يلوح في العتم
وتأكّدْ أنّ بينك وبين حُمّاها
قابَ جفنين أو أدنى

لا تقلْ اِسمها!
فهذي الأصابعُ مرّت للتوّ برائحتها العالقة على قفا الكنزةِ
تُلقيها على كتفيك ذات نصٍ في هجاء الشّمع
ولا ترخي عن حنجرتك عقدة الكمّين
حتى الرّجفات الأولى ممّا وراء الباب
اتركها تُسدِلْ على خصرٍ ساحلٍ وثير صوفها
وفقطْ تأمّل كيف تزغزغ في عينيكَ سنابلُها السّبعْ

لا تقلْ اِسمها!
لهذي الأصابعُ بصمتُها في العطر
فارحل رغم أنفك نحو الأزرار الدائخةِ في فلك ثوبها
أفركْها يهبط الوردُ
في غرفة يتدرج فيها النرجسُ من منديلّيةِ المفتاح
وحتى فراخ القناني

لا تقلْ اِسمها!
اصمتْ واسمعْ رجعَ دمك بأذنيك هاتين
تشدّهما إلى نهاوند صدرها
وهناك ما بين رخيمِ الجوز وحلمتين أختين في المقام
ينكشف الوجد الهاربُ
فتصيحُ كلَّ مواويلك شجناً وحمحمات

لا تقلْ اِسمها!
فهذي السبّابةُ لم تكن لتهدأ
ارفع يدك عنها تسردْ في غمضةِ عينٍ شغبها وهي تحطُّ على الوجع وتبّعْ بها إذا ما استطعت:

كيف تسدُّ في الطريق شفتيك (كي لا تقع القبلات في مطبِّ النثر)
تشدُّك إلى رقصٍ يقدّ قميصك من كلّ الجهات
تمسحُ بعرق الإبط ما تركَته على مشط قدميك دعساتُ كعبها الحافي
تومي إلى غيماتٍ مسعورة أنْ تتابع رعدها في ركبتيك
تبتلُّ بالنبيذ لترشق سيجارة نَسِيْتَها ترعى عشب السّجادةِ
تنسّلُ في حضنك برق ياقتها لينفرط طوقٌ من سحابٍ على سرير المطر

تسكّت ذكور النحل الهائجةَ في بُنّي الستائر، أن هُسْ: حبيبي ينام

لا تقلْ اِسمها!
يفضح هذي الأصابعَ نابضُ الحبر في العروق النّافرة
فله مع بكائك الناقط على قصب سكّرها تناص
يأتي بتلويحتها في القطار الأخير،
يمرُّ أمامك وأنت تلمّع بالدمع بلّوره
نافذةً
نافذةً

لا تقلْ اِسمها!
ودعك تحت هذا العمى،
يومض بما رأيت بين يديها من نجوم الضّحى
فربّما ينبهرُ قلبُك، هذا المتدلّي بين أضلاعك كخفّاش
وهي تعمّشك الآن من الخلف.

في الملاجة: فوق

إلى مهران ديب

[1]

في الملاجة، فوق
شعراء رُحّل
ترجّلوا عن عجاجهم قرب البحر
وصعدوا الجبل حفاةً
يفتّشون عن مطارحَ يتدرّبون فيها على الأبد
فلا يكتشفون فارقاً في الحيرة
بينهم وبين صغرى السنديانات
وهي تجرّب ظلّها على الغيم

[2]

في الملاجة، فوق
واحداً من الغاوين كان الغيم
قالوا لي: ضيفٌ دائمٌ
قبل أن يأتي
يُخرّس بنات آوى
يؤجّل في الورق الناضج حفيف الغَيْرةِ
ثم يتجوَّل بين الكراسي
على الأكتاف
بصمت
لكنّه حين يغادر

تسمعُ في جيوبه تخشخش مفاتيح المطر

[3]

في الملاجة، فوق
تنزل القرية إلى القصيدة
بيتاً
بيتاً
تُكحّل بالحبر عين الماء الناشفة
وتلقي في بئرها المهجورة
جديدها من أسرار العشّاق
تتأكّد حتى من بشاشة النسمات العابرة
ولا تصعدُ
قبل أن يجفَّ على آخر قمصان الليل
حليبُ التين

[4]

في الملاجة، فوق
عرفت لماذا
كلّما جاءت سيرة النّهد
صاح عادل محمود: ألله
فالصبايا
كُنَّ بين الصوت ورجعته من الوادي
يخرجْنَ من بين السطور
كجنّيات يُرْضِعنَ حروف الكلام

[5]

في الملاجة، فوق
مهران وأنا
ظلَّ يلفحنا الهوى حتى أقاصي العنب
ما تغيّرت علينا الجهات
اتّحدت على خطونا
خلّصتنا من الباهت في الطرقات الواضحة
ورأينا المسافة
هكذا خيطَ غبارٍ ملقىً على درب

هو
سحب حبيبته من خصرها الملاجيِّ
إلى أفلاك عسليّات
قال: كي تقبل الدّوخة قِسمتها على اثنين
وأنا
سأظلُّ أفتّش عن تناصٍ يتابع معي في:
أنَّ القبلات لا تكرّر نفسها
وأنَّ العينين قبالة العينين
في حضرة العشق مستحيلٌ ثامنٌ
وأنَّ العباراتِ تظلُّ على قدِّ حالها
إذا لاحت في غضون الوجد بذرةُ المعنى
وأنَّ الروح
إنّما تكشف عن جليل فوضاها
في أوَّل حبٍّ
بعد الحبِّ الأوَّل.

خيالات الظل

[1]

لو كنتُ لشجرةٍ
لأخذتُ قيلولةً عند جذعها واسترحت كنسمةٍ منهكةٍ من اللّعب
لو كنتُ ليمام الأرصفة
لتعلّمت كيف أقدّر المسافة بين الظلّ وصاحبه، فلا أُصطاد بين الأقدام

لو كنتُ لسنونو
لبرشقةٍ هنا ورشقةٍ هناك، ساهمت بتشكيل لوحات المغيب
لو كنتُ لإبرةٍ
لتسليت وأنا أتفرج على فشلها، وهي تحاول أن تستر عريها بثيابي
لو كنتُ لقلمٍ
لكان لي بعدٌ ثالثٌ أتباهى به بين السطور
لو لم أكنْ له

[2]

صار كلّما تراجع عن دربٍ تعثّر بي
واتسخت بصفرة الخوف خاصرتي
وكلما تحاشيته عن فخاخ واضحةٍ
اتّهمني بالعمى
لأشعر أن بصيرتي تُهانُ من أقرب الناس إليّ

ينحني

يطامن
تأخذه الحيرة خطوةً إلى اليمين، خطوتين إلى اليسار
ويريدني أن أسوّي شكله في الجهات
لا أستطيع
فيدلق عليّ سطلاً من الحبر
كأنما ليمحو حذافيره الفاشلة

يعيّرني أني الواطئ أبداً، الشؤم اللاحق صاحبه أينما استدار
ناسياً أني أنا المتنازلُ إلى جواره
أسودي باهت لكنّه يكحّل حتى أقواس القزح
ناسياً أني اللون الثامن في الطيف، لولاي ما بان
ناسياً أني الناتجُ الوحيد لدوران الشمس حول نفسها

رضيت أن أبقى كنّاساً أبدياً لغبارها في الكون
لأظلَّ ماسكاً بالنهارات على الأرض أكثر
لم أفكّر يوماً أن أبادله الأدوار
فما جدوى وقوفه العمودي عليها
إذ كلّما مالت به الريح مال
وكلّما اشتدّت عليه سحل عن سروج خيله
وانكبَّ على التراب كظلٍّ متفسّخٍ لجثّة

[3]

لم أكن لأفضحه لو انتظرني في تلك اللحظة
كانا في الغرفة وأنا الثالث
طاوعتها ثيابه دونما استعصاء رقبةٍ أو ارتباك زرّ
وكنت أشعر بلفحها يفكّ أوصالي

أسمعُ في نهديها فورة الحليب
أشمُّ حواليَّ رائحة عرق الجسورات
وهنّ يغزلن اللهب
وهو مُسبَلٌ كلُّ ما فيه إلا جفنين
كان يراقب في السقف الثريّا يكاد أن ينقطع الحبلُ فيها
دفنت رأسي في الشراشف المطويّة
حتى لا اشهد في عينيه حزن جواد يحيص في الكبوة
وما طقتُ يوماً أن أرى صاحب ظلٍ مكسور الظهر
لكنّه غافلني
وتفلّتَ كزوبعة ماكرة
ليغنم ثلثي رجولته بالفرار

[4]

سأنتقم منه
سأتركه عارياً في المهبِّ
وأنا مستلقٍ على ظهري
يصدُّ بيديه قارس أيامه
وأنا أطويهما خلف رأسي
ساقاه ترتجفان
وأنا أرقِّص الواحدة على الأخرى
ليعرف أني ما خلقت لأطوى في جيبيه
أو أقعي على جانبه مثل كلب وفيّ

[5]

سأخلع وتدي المدقوقة إلى كعبيه

فلا أكون البغلَ
يرخي لي الحبل لأسرح في الدنيا على هواه
مللت هذا اللا حبّ من طرف واحد
مللت أن أقلّد قامةً لا تليق بي
لا تتألم حين يداس على أطرافي بالنعال
معوجّةً
منكمشةً على أوهامها
عائفةً مثلما هيبتَها ظلَّها

سأخلعه
وليقولوا ما يشاؤون
نكّارٌ للمشاوير
خائن الحلم والدم
سرابٌ حالكُ
جاحدٌ
يا لخسارة الألفة فيه
سأخلعه تماماً كظلٍّ في العتم

في متناول أضلاعها

اخترت الأرضيَّ
لا لأنّه لم يبق لي من هواتف ديك الجن الصغير غير مفتاح الصفر
بلْ لي منك فيه وعد
يكبر الآن في الأسلاك
لا أنا فطمتهُ

ولا أنت أطلقته في الحبو

اخترته
سيترفق بي كجَدٍّ حنونٍ في رقبته أسرار الدنيا
سيعرف إنّما شربت نبيذاً كان مزاجه .كما تقول .دمعةً أو دمعتين
لتجرؤ الأنوثة المكبّلة بحبال صوتي
وتنفرط هذه الحصاة التي في الحلق

وأعترف:
أن مسوّدة لك في تأويل حلم يقظةٍ
سرقتها،
تصرفت بعرفانك في تعاطي الوجد
حوّرت في الهاجس
فجعلته مني إليك
فأنا ما آمنت يوماً بموت المؤلّفة
فككت مشطوبها عن بنتٍ
لا تحايد في الفصول
ولا تتهاون في تأنيث المكان
من شجره المنحاز إلى السرو وحتى شماسي القصب

كتبته لأنفي النفي
وأترك لسيرة الجسد
أن تتنامى في الدهشة
عنونتها بما لقّبتني فيه: «إكسير اللحظة»
سأنشرها غداً لأستحمّ في حبرك مرّتين
وحين سأقرؤها لك الآن على الغائب
ستعرف أني ما زلت وراءك وراءك مهما طال النص

إكسير اللحظة

أنا التي شقّت عليك الظهيرة بشال
وأقعدته على الكرسي المقابل
لا لأعبر النحل بقميصٍ لا يعرف من أين تبدأ الكتف
بل لأوحي لك أنني لست بانتظار أحد
وما كنت مشغولة بتأنيب الورد
حين زحزحت عن كتابك كواعب الياسمين
كنت أستدرج قرنفلك من سباته في نص قديم
كي يتناسخ إلى صباه في عطر المليحات
وما التفتّ ثم أغمضّت في الرضا
ليستريح كحلي

كنت أتأكد من ارتجاف الشجر وقد وصل إلى أصابعك الناغلة على الخشب
وبقيت أكثر مما يحتمله من وحيدة النهار الغضّ
لا لأمنحك الجسد الكافي
وأنت تتملّى
النصف الفارغ من قنّينة البيرة
فنجان القهوة المقلوب على حظّك
بل كنت أريد أن ترى اسمك نازلاً عن رفّ الغلاف إلى حضني

قلمي يلتحف أنفاسك في غضون الملزمة الأولى
وتقرأ على ورقة بحجم الكف مقطعك عن السين
لتكْمل اسمي
فلا تظلّ وحيدة كما على أبواب القواميس

هذي الكريمة
بلا نقاطٍ وتسقي من جرنها لغة بكاملها
لا تستريح على سطر
قبل أن تجبر فيك عثرات الأمل

أنا ما نسيت شالي عالقاً بين كرسيّين
لتخمّن بجحود أنه طبع الحرير العاق
بل تركته لتفرك عينيك
ويتّضح المشهد
أني أنا العابرة في الوضح
لا حلم يقظةٍ تؤوّله على هواك

اخترت الأرضيَّ
لأسمع لهاثك وأنت في متناول أضلاعي
أشمُّ في ثيابك فوز هداياي
أتلمّس ما ألقته على خدّيك الشيخوخة المبكرة
أسرح في حزنك الخلاب
تحت شيب تحاول أن تتلافاه بتغيير فرقة الشعر
ونزقٍ فاشلٍ في صمتك الأجش
ولأنّها عادتي في فرط الوداد
أعانق لأمحو الفوارق التي باعدت بيننا
وتعدّ بسبباتي فقرات ظهرك واحدةً واحدة
ولأنّي ما زلت أحبّها القبلات
هكذا
بقامة تجيد نهديها
ممشوقة كما يليق بقطاف غيم
ولأني ما زلت ضدّ الأقراط إن لم تكن من جمر

ضدّ أن تُطوَّق الآه في عنق الحمام

اخترت الأرضيَّ
حتى لا ينكشف اشتياقي بأرقام طالما كرهتها
ولأني أجيد معه مخارج اللهفة أكثر
فلا تخفتُ سيني بين نونَي النسيان
حتماً لن تتصل، فالشعراء لا يبادرون
ولكنك حتماً ما تزال ترتعش
وأنت تسمع من فيروز: «انقطع الخط»

في النقش على الأضلاع

[1]

لا أعرف لماذا الآن أرثيك يا أبي؟
أ لأنّي أناهز الآن عمرك حين أنجبتني
أم أنني لم أستطع قتل دمعك
فما زال ينزّ من خابية البيت

ولم أستطع أن أصدِّق بعد
أنَّ الموت يأخذ الجميلين باكراً
وينسى الذين لا يستحقون الأمل؟
أم كأنّي لن أتخلّص من نواح قديم
لأرى فداحة موتك؟
فالحزن في صغار الأبناء يظل نديّاً يا أبي

أ لأني أكثر شبهاً بك؟
فلو رأيت صورتي بعد التسريح من الجيش
هكذا
تصقل ملامحي غبطة النجاة من الحرب
لقلت: هذا أنا
لكن بفارق الحسرة في العينين

أم لأني يا أبي
تمرّست في الخسران والأسف
ورأيت فحوى القصيدة في المراثي اللافتة للوجع
فلن أستحضرك على حياد
حتى لا أكون العاقّ مرّتين

[2]

لم ننفذ يا أبي وصاياك
دخلنا من باب واحد واختلفنا في الجهات
حمّلنا اسمك الأحفاد الأُوَل
وإن كنت ركّبْته أنا
لينزاح قليلاً عن أنوثة في النسب

صاهرنا من دسّوا لك السمّ مرّات
وما بين عزيزات الحمل والعازفين عن السلالة
اختصرنا النسل والصبيان وسطوة الأعمام
فرادى في المآتم
فرادى في الأعراس

تنازلنا يا أبي عن حصّتك في ميراث المطر
فقد تقاعسنا عن الصبر في تربية الغيم
ولم نستطع منع الصحراء عن جوارينا
فانتهينا إلى عابرين
ينخلون الدرب على غرابيل الحظّ
فما كان لخطونا أثر
ولا لرحيلك جانبان

[3]

في المكان الذي تعوّدنا عليك فيه
حضرة ما كانت تتسع لصورة شاملة للعائلة
وحين خرجت، بان في الحائط خلف ظهرك صَدْعٌ
أحاول رتقه بالذكريات
فلا يلتحم معي
بظلِّ فانوس كنت أمر بإصبعي على حذافيره متى أشاء
فلا يطاوعني
يظلّ ماسكاً بجوز كرسيك
كأنّما ليكتم في الصميم تناهيدك في ضناك الضالّ

بأنفاسي أحاول
فيقطعها البكاء
بإغماضة أستعيد بها عروق يديك وأنت تطيّرني في الهواء
فتفرك جفنيَّ ضحكةٌ باهتة
سأتركه للشمس يا أبي

فما تزال تدخل من الباب الذي فشلنا بإطباقه
فقد ظلّ طوال عمرك
مفتوحاً على مصراعيه

[4]

قبل أن تعود إلينا بساق واحدة
لم نكن نعرف مآربك الأخرى في عصاك
فقد كنت تتقرّى بها ألغام الحدود
لتظلّ على عهدك؛ تسقي ظلالك الأولى في بساتين الجوز
يقول الأخوال:

إنّ رجلاً يأتي في الليل
وما واضح منه غير ساق واحدة وعكّاز
يردّد الحفيف صدى مواويله
وفي الصبح يغادر تاركاً قناطير من الجوز
أكداساً من قلامات الغصون اليابسة
ومنشاراً صغيراً
جربّوا غيره منشارات ومنشارات
فلم تحظ بقشرة

كانت إذا ما لامست خصر شجرة
صارت خناجر من خشب
وحين لم تأتِ
عوى في أقاصي الضيعة ذئب
فصاح جدّي أبو أمي:
جهّزوا خيام العزاء

فإنّ قلام الجوز قد مات

[5]

يا أبي لماذا اخترت قبراً نافراً في قمّة جبل
كأنّك كنت تعرف؛
أنَّ في الأعالي متّكأ لنعاس الموتى
وأنَّ لأمّي مهارة العنز
فلن يستعصي الدرب على أكاليلها
وجرعات ماء الزهر من إبريقك النحاس
كأنّك كنت تعرف أننا لن نأتي، وكعادتك أشفقت
فمنحتنا الذرائع الكافية
كي نبرر نكران الجميل

تقول أمي أنّها لا تعرف؛
مَنْ وضع له شاهدتين فزّاعتين من أعواد التين
ولا مَنْ كتب في ترابه كلمات
كلما رشّت عليها الماء اتسعتْ
كانت تظنُّها أصْلَك وفصْلَك
وحين أخبرتها يا أبي
أنّها لعاشقة تقول بحرقة قلب
«لَعلِّي من حُوْرِ الجنان نصيبك»
قالت: أ تحتَ التراب ويزفُّ لي ضُرّة؟
من حينها كفّتْ عن صعودها اليومي
حتى إنّها في آخر عيد لها
أصرّت أن نسوّر القبر
طالما سننزلها إلى جوارك

[6]

أأربعة عشر ولداً يا أبي؟
تحفظ بالأشبار مقاس ثيابهم
ولا نذكر من بنطالك غير حواف الجيوب
وندف القطن على ساقيْه المنفوختين
نؤوّلها كما كنا نفعل بالغيمات
تذكر أعمارهم باليوم والليلة
وننسى أسماء أدويتك
تعرف طرائقهم واحداً واحداً في الشغب
ولا نفهم جنونك في معارك «الميرة»
تعرف أخطاءهم المتكررة في غزل البنات

ونصفُّ إلى جانب أمي في عتاب العاشق الأبدي
أأربعة عشر ولداً يا أبي؟
بماذا كنت تحلم
إذا كنت أوصيتَ
أن تكون غطاءَ نعشك خريطةُ البلد
فما احتملتَ أن تراها؛
يتضاءل فيها العشب الحافل بالفصول

أو يمحو الغرباء أنوثة حدودها مع البحر
إذا كنتَ، وأنتَ الضالع في السياسة،
خمس مرّات كسرت راديونا الخشبي
فما كان يذيع عليك
غير أخبار الحروب الناكسة

[7]

أأربعة عشر ولداً يا أبي؟
ما الذي كان ببالك؟
إذا كان كلّ ما لديك من أبطال نليق بأسمائهم لم يكْفِ نصفَنا
فتركتَ ما تبقى لكاتب النفوس
يحمّلها العبودية على هواه

أأربعة عشر ولداً يا أبي
ماذا كنتَ تنتظر؟
إذا في الخمسين طرشت
وبعدها بعامين أكل السكّري إبهام قدمك الأخرى

وما عاد يسلّيك
سوى منقلة تنقّل وحدك حصاها
وهرّة تكشُّ بذيلها الذباب
عن مطرح قدمك المبتورة
كأنها لم تنس يا أبي
أنّك أنتَ آويتها من نزق القصابين
وأنك دائماً
كنت تهزّ برأسك واثقاً من عودتها
فقد فشلنا أكثر من شباط في نفيها عن شراشف أمّي
يا أبي
هرّتك خرجتْ في جنازتك ولم تعد

[8]

أخوتي هل ضحكوا عليّ يا أبي؟
حين تركوا لي من أغراضك ما ليس يُباع
طاسة الرعبة؛
تناقصت شناشيلها بيد الأولاد
طقم كاسات؛
تجمع بالنقش الفارسي قصيدة لأبي نواس في وصف القدح
قمّاتِ طوروس؛
تدرّج ألوان الأبد في سبع ريشات من طيور الحُرّ
مشرب تبغ
فانوساً
والخابية
وإبريق النحاس
مخطوطاً؛
دوّنت فيه حكاية عشق شفوية
ردحت أغانيها على ضفاف العاصي
كان عند أخي يسلّي فيه النواطير في بيادر العدس
عندما أحرقوا كتبك أمام عينيك
وأجبروك أن تبول على رمادها

سنواتِ سجنك؛
مضمومة إلى خرز يفرد جناحَيْ حمامة على حقيبة مدرسة
جزداناً؛
من جلد أفعى
خوفتنا ذات صيف فسلختها بيديك
أتذكُر ما فيه يا أبي
ثلاث ورقات:

- رسالةٌ من ابنة عمٍّ لم نعرفه ولا كنت تعرف أنّه فرّ من بيروت
إلى ضواحي غرناطة ليعمل حلاباً للجواميس
قبل أن تهتكَ قرونُها كَبدِه المخمورة
- جدولٌ فيه بالقروش ديون الآخرين
- قصيدتي «يسمّونه عندنا»
مقصوصة من الجريدة
بعناية ورّاق

لا، أنا ما نسيتُ

قولي لها:
لم يخطر ببالي
أنّ قمراً شاحباً
سوف يظلّل بهالات من الملح
جرحاً لي على الورق

وأنّ قبلتها الأولى
سأراها فراشة مكتّفة الجناحين
إلى قالب من ثلج
ودرباً أمسكتُ أوّله
بأصابع قدميّ الحافيتين
سوف يلقي على ظهري
حِمْلاً أبديّاً من متاعب ما كلّها لي
وأنّي في الآخر

سأشرب منقوع قصائدي
في حفنة دمع

لا أنا ما نسيت
أنّ ورق الجدران
في الممرّ المؤدّي إلى نعاسها
تقفّع عن وجوه لحرّاس منسيين
نوّمْتهم هكذا؛
بقطنة مبلّلة بالحبر على الأنف
وخطوتين إلاّ قميصاً
كانت المسافة
ما بين نبيذ ينسل بدم بارد
آخر رجفات الساقين
وما بين وسواس السرير

وأنّها بصرير عظامها
كانت تهجّي طلاسم الحمّى
ونحن نرعى قطعاناً من الأقلام
في السهب اللانهائيّ للمتعة
وأمّا شمس تمّوز الخامسة
فقد كان عليها أن تقطع
بنايتين وثلاث شجرات سرو
قبل أن تقلّبني على فراشها
ذات ساعدها وذات الوسادة

قولي لها:
حبّنا الآن جنّة محروقة الشجر

لا أنا
أتقن رتق ظلال مقلوبة على قفاها
ولا هي
تريد أن تكحّل ناظريها بالفحم
ولم يكن لي منها
بصمة في الجمر
أو كلمة مكتوبة دائماً
على دائرة في الهواء تحت سبّابة الحائر
وهنالك
في الكتاب الثالث من الرفّ الذي إلى يسار المرآة
تركتُ واحدة من شعرها
دعوة لوداع مزدحم
وفي شراشيب ستارة
ظلّت كلّما دغدغتْ كعبيّ غِرتُ
عقدتُ ثلاثة خيطان جديلةً
قولي لها إن أرادت فكّها
فعلى مهل
حتى لا ينخدش الرمز

قولي لها أو لا تقولي
ما كنت لأكمل من رماد حبر ليس لي
القوس المتبقّية من الوشم على سمرة كتفيها
أو أطوي أنفاسي تحت إبطها
مثل كومة من ضباب

وعليّ أنا وحدي

أن أواجه انحناءاتي
أزحزحها عن مطارح لمعها
بممحاة النسيان الخشنة

وكما غداً
أن أنقش بما جنيت من المطر
جداريّة انتظاري على صخر هاوية
أحبّ إليّ
من أن أهطل بين يدين
كلّ همهما ترويض غيماتي

الأسود ليس لونا

2019

إلى حسين برّو، صديقي منذ الحبر الأوّل

الضّباب

لا ليس غيماً
هذا القميصُ
افركوا ملمسه بأصابعكم، وقولوا بعدها:
لقد غشّنا أنّ حضوراً للحرير
يملأ الجهات، فضفاضاً، يمتصّ زفيرنا
وعلى الأكتاف، رخواً وخفيفاً
شاهدوه، بلا أزرار ولا أكمام
يسحل على الطّين ولا يتسّخ

لا ليس تمارينَ فاشلةً للثلج، هذا البياض المكدّس
هل قرست أنوفكم وأنتم تشمّون أنه بلا رائحة؟
لا ولا ندى خرّف
وجاء قبل الصّبح، فجمّع قطعانه في الفضاء كمطرود
كلّموه، لن يترك على شفاهكم سوى ريق باهت للتعطّش
اسألوا الكمأ عن اسمه، فهو ترجمانُه الوحيد
لا تناقشوا بعضكم؛ من أين جاء؟
فهو لا جهة له، مثلما لا وطن له
لا لا
أنا ببساطة
ضمادٌ وثير
أحطّ على جراح هذي الأرض

البالم

زورقاً للانتحار، مركباً للغيابات،
سليلَ النفايات المدورة
نعشاً من المطّاط
الفردةَ الضائعةَ من خفّ عملاق الموت
سمّوني ما شئتم
أنا لا يهمّني اسمي
فليس لعابرٍ بين ضفّتين ما يستحق الخلود

بي ثقة أنّي لست أقلّ حناناً من حوت يونس
وبي ما هو أعلى من رأفة الدلفين
يغرق ناسٌ
فأُوضع في عناوين نشرات الاخبار
نبأً مشؤوماً
ويسودُّ وجهي أكثر مما أنا فيه
ولو كنت من خشبٍ لقالوا :
الموج غدّار
وبقيت أدخل في بطاقات الأعياد
معلّقا بحبل إلى شمس المغيب

ولو كنت من ذوات الأشرعة لقالوا :
اشتعل الشوق في قلب الملّاح
فتاه البوصلة
ودخلتُ الفنّ من باب الرّواية
وينسون أني لا أكثر من قارب لصيّاد فقير
أعيش بأنفاس مستعارة

وتخدشني في الخضمّ زعنفةٌ واحدة
هم حمّلوني ما لا طاقة لي به
وأسبح بضمادي كجريح يفتك بعظامه الملحُ
وينسون تلك المراتِ الكثيرة
لمّا كنت ألقي على الشاطئ الآخر
كلَّ هؤلاء البشر

لم يعرفوا أبداً
أنّه كان بوسعي أن أفسح المكان لموجة
فتسحب ظهره وتطعم عينه الثانية لصغار السمك
ذلك الأعور
الذي كان يغمز لصديقه
أنّ ثدي الأمّ التي كانت ترضع ابنها
كي يكفّ عن البكاء
إنّما هو أقرب إليه من جيب العجوز
كرمى لحليب
نقط على شفاهي المشتاقة
لأمّ لم أعرفها يوماً، تركته

كان بوسعي
أن أجعل وجه تلك المرأة
يطفو على سطح الماء كقناع من البلاستيك
فقد باعت حبّة الدّوار لفتاة
جاءتها العادةُ وسط البحر
كرمى لعيْنَيها الغارقتين في الافق
كظمتُ غيظي

لم يعرفوا أبداً

أنّه كان بوسعي أن أتمارض
أمام خفر السواحل
فيسحبوني إلى سرير الرّمل
ويسودّ حظّ ركّابي معي
وأنّه من أجلي لا من أجل أقدامهم
كان الشاطئ
يقلب حجارته المسنّنة على قفاها
يعرف أنّي أريد
أن أتابع مع الدواليب الطافية
طريقنا إلى أبد الحكايات الغامضة

أنّي لم أعتب على واصل لم يلتفت إليّ
ولا على جاحدين لرفاقي سُترات الفلّين
ما إن ينجوا حتّى يُلقوا بها في المكبّات كديَكة ٍنافقة

ولكنّي لن أنسى
ذلك الوجه الذي لم يعد أصفر
كيف يهجم نحوي كقرش
دون أن يسمع هتافي «حتّى أنت !
من أين لك هذا القتل اللئيم؟
حتى تبعج بهذه السكّين المثلّمة
كبِداً كانت قبل قليل
تكاد أن تنفرط حزناً عليك!»

قطار

لن يقرأ أحدٌ مذكراتي
لذلك أكتبها بالدّخان على غيمةٍ عابرة
ويحسبني الخلقُ شكلاً أجوفَ للحديد
لا قلبَ لي يتقطّع
وأنا قضيت عمري
أنقل إلى جبهات الحرب جنوداً وأسلحة
وأعود حاملاً الهاربين منها

وكأنّما ليس من حقّي
كواحدٍ من قطارات البلقان
أن أتوقف قليلاً قرب بستانٍ أو نهرٍ
أنفض عن أضلاعي هباب الفحم
وأغنّي بصفير العاشق لمحطّة
تنتظرني في الثلج كفتاة مخطوبة للتوّ
وأنسى قليلاً
الأنينَ الخافت لركّاب لا يعرفون
إلى أين؟
تقودهم هذه المسافات
التي تلتفّ على أعناقهم كالغصّات

وأكاد أسمع للصمت نشيجاً مخنوقاً
وحناجرَ تحاول أن تبلعَ ريقها الجافّ
قبل أن تشارك بالعدوى سعالَ أبوابي الهرمة

لو أنّ لي أن أنسى
الظهورَ المحنيّة
تحت ساقَيْ طفلٍ أو حقيبة كالحة
القمصانَ المشلوحة على السّكك
يبّسها ملحُ البحر كلحاء أشجار البلّوط
بعضاً من نقاط دمٍ، يشي لونُها الفاتح
أنّ وحلاً كان عالقاً بأقدامها
وتبعثُرها على الجانبين يشي
أنّ صاحبها خائفٌ منهك

ولم أكن يوماً
لأزيد في أضلاع الخائف جفلةً
أو أتركه يعبر في طريقي الوعرة
حتّى على سيل الجبال
دون ان أحمله معي
لو أنّ لي أن أنسى
بصماتِ أنوفهم المتعرّقة على بلّور النوافذ
ذلَّ رقابهم وهم يطرقون في الأرض
نقاطَ دمعهم الراشحة في جلد الكراسي

إلى متى؟
أبقى، كواحد من قطارات البلقان
أحاول أن
أنقل احتجاجنا، نحن، القطاراتِ، على الحرب
وأنّه
لا حرب عادلة
اسألونا، نحن أدر ى

بصناديق السلاح
وبخشبها الذي يرجع معنا توابيت
أن
أصحّح للعابرين على متننا
فهْمَ الناس للحافلات بأنّها بلا ذاكرة
ولا تفرّق بين الراحلين
وأنّها كتلة من حياد بارد

تعرف القطارات الفرق
بين من يبول في عنابر الفحم
وعلى العجلات
ثم يتباهى بحراسته على بشرٍ
ربما بعد قليل يموتون
وبين من أنفق يديْه في تلاويح الوداع
كمن يحاول شتلَ وجهه من جديد
في جهات الوطن
بين المهرِّب والهارب
بين اللاجئ وشحّاذ الأمكنة
وكذلك
بين من تلد
في حضني، والولادةُ ريحٌ،
وبين تلك
التي تأكل بساقِ ابنتها المقطوعة

ديب

لا تلحق بهم يا ذئب !
رحلوا
انظرْ شرقيّك، هناك، أكداس من نعاج نافقة
ولن تستطيع في هذا الزخم من البارود
أن تشمّ رائحة آباطهم
ومن الصعب عليك
أن تقتفي أثر الحفاة على غبار أسود

كلُّ الحظيرة بين يديك
خذْها بلا أبوابٍ
تأمّلها مزدحمةً، واخترْ فريستك بلا خوف
اقعِ بأبّهة
واخترْ أن تباشرها كمرتاح
من كتفٍ، من ضرعٍ، أورقبة
حكّ ظهرك الأجرب
بكرسيّ الجدّ المشلول
العقْ ككلبٍ
نهاياتِ الشحم في قعر الطناجر

كلْ كردوسَ قطنٍ هرّ من مخدة
جزّةَ صوفٍ
أفلتت من نسيج البُسط
وتعلّقت في الشوك، وهي تجرّب
أن تقلّد الأرض

كيف لا يجرّب أحدٌ أن يأخذها معه؟
كلْ كُعوب الأحذية
أحشاءَ البصل الملتصقة في رماد التنانير
بقايا لقّة زعتر لطفلٍ قُتل على العتبة
العقْ دماً

ما لك تدير بوزك؟
كنْ نباتياً لمرّة
وتسلّ بلحاء الشجر
أو من المجترّات
اعلكْ هذا الترابَ المرّ
أو نصفَ نعل لم تستطع حَرْقه قذيفة
حكّ أضراسك بالخرز الهارّ من أطواق الصبايا
احسبْها عظاماً مسكاتِ النوافذ
وراصّات الدفاتر الناجية

تلمظْ
حفّ شاربيك
كي لا يذهب كل هذا اللهاث
كفسوة ثعلب تحسده الآن
فقد سبقك
إلى بضع صيصانٍ زغب خلف الحيطان
ولا تخف من العوالق بين حجرين
فهي ليست ثيابَ حيّات
الحيّاتُ ليست عمياء لتُصطاد مرتين
وإيّاك إيّاك

أن تغفو تحت مناديلهم المعقودة
في أغصان الزيتون كأراجيح
سيلعب في أذنيك الماكرتين
شلحٌ من ذباب أزرقَ
ويعرف الطريق إلى بطنك النملُ الكسول

وقرّبْ أنفك، قرّبْه، من المصطبة
انفخْ هنا
حيث السهرات
ستجمّع زوبعةً رشيقةً لك
وتؤشّر لك أن تفضّلْ
فوارغَ الرصاص
لا تستغربْ كيف!
لا صيرة
لا أقنان
لا خابيةَ دهن
لا قَديد
في بيوت الحاتميّين؟
وكيف التي تشتهيها طويلاً
هَوَتْ كتنكاتٍ منداسة بالنّعال
أبراجُ الحمام؟

جرّبْ الحسرة
جرّبْ أن تنام ليلة جوعانَ
أو أقولُ لك :
جرّبْ النزوح عن أرض وُلدّتَ فيها
لاتلحقْ بهم! راحوا

وانزل الوادي بعواء مبحوح
ناكسَ الرأس
ومترهّلاً قفاك كإلية شاة

المسمار

عمري، ما رضيت عن اسمي
ولا عن شكلي، مثلكم، ما خيّرني أحد
قد أسكتُ كصديق قديم
عندما يجعلني الفقراء
المشجبَ الوحيدَ لقمصانهم
لكنّه ليس بمسمار
ذاك الملتصقُ بمائدة النصّاب
يقايض اللقمةَ بالقتل

أفرح، حين يُلقّب باسمي
البرعمُ الجافّ من القرنفل
كرمى لاسمه الأصليّ «عود النوار»
وكي لا أنسى فضله في تخفيف آلام القلب
وهو ينقّي رحم النساء من دم فاشل
وليس على اسمي
ذاك الغِلظ المخروطي في جلد القدم
أو القمع المقلوب في عظمها

فأنا ما خلقت لأخرش لفائف الأخمص في أقدام الناس

وأمنعها من المشي صباحاً فوق أرض صلبة
أنا لا أنغرس لا أنغرس
في لحم أو عرقوب أو رسغ أو قحف جمجمة
أنا لست الواهي كذريعة
لأجري في أمثال جحا
وأنا الذي ناولت رقبتي لبشر
أطلقوا حبوَ الكلمات على ألواح الفخّار
لا لا لست أنا، ولا هو على اسمي
ذاك الواقف بين كتفَيْ قنبلة

اسألوا عني
عن الصانع الخفيّ لانسجامات الجميل
عن الذي لا يكاد يرى في متعة الشكل
أنا لست المُوصل أنا الوصال
أنا الذي لا أغادر، إلا على جثتي، مسقط رأسي
اسألوا كلاليبَ النجّارين
مع أننا، معشرَ المسامير، لا نتلاصق في مكان واحد
وليس لنا إلا مع الصدأ خلاف

أنا المسمار
أعاند مطارق عميان البصيرة
وكنت أنذرهم بشررٍ في الأحداق
أني سأعوج وأنكسر، ولو من فولاذ كنت
ولا أندقّ
فأنا لا أحشر نفسي في مكان ليس لي

أنا المسمار

وحدها العزلة تحني ظهري
حين تحبسني كجَرَب على حيطانها
فلا هي تطلقني في الممات لألحق بأحبابي
ولا هي تتركني آكل من خشاش الصور

المُصَوَّر

من تعاريج البحر
كنّا نبدأ رسْمَ الخريطة
تماماً كعروس تخرج من موجه للتوّ
كأنّما كنّا نعرف بالحدس
أنّ الخطّ في الصحراء
لن يبقى لننهي المشهد الجانبي للنّهد
أو السّرة النّافرة

وما من واحدٍ منّا
إلّا وانكسرت بروةُ قلمه الرّصاص وهو يلتفّ عند عكّا
كي لا يخدش خطوتها الأولى على اليابسة
لم ننقّطْ كالوشّامين بالأزرق
نهايات ظِلّها القديم
على أجساد عشّاقها الميّتين
اكتفينا بما تجمّع من جلد الممحاة
منزاحاً بباطن أكفّنا الصغيرة
بعيداً عن مطارح المطر

وما من واحد منّا
كان مقتنعاً أن الشّمال فوق
أو أن نسيجاً واهياً من خطوط الطّول والعرض
سوف يمنحها حصّتها من الحرير

السكّين

كأنّما هي نفسُها السكّين
التي فتحتْ علبة السردين، وانشحذت على الأظافر الناشبة
التي فضحتْ عفنَ ما تبقّى من الوليمة في شقوق الكعب
التي بقرت بطن القفل واغتالتْ سرّ الخزانة

التي فشلتْ في تقشير بقع الدم عن جلد البوط
التي تركت صدأً على إلية البنطال المرقّط كأفعى الجرود
التي ثلّمتها المبارزةُ مع الهواء
التي تفكّ اللّغز في «السّلاح الأبيض»
التي تصطّك بعظام الرّقبة

التي لا تلين لنحيب أو مواويل مبحوحة
التي فشلتْ في تجريح الدروب المرِحة للفراشات
التي حزّتْ الفهارس بالطّول، وهي تفتّش عن أصابع الكاتب
التي كانت تلمع تحت بصيص نور بعيد

وإلّا لماذا كان ذبْحها ركيكاً
طويلَ الحشرجات
لم تكفِه تمتماتُ الحلال؟

فها هي البنت ماتزال تمسك بأصابعها الطريّة زنّارَ أمّها
وولدان تبسم شفاههما
عن مزاح لم يكتمل
ودميةٌ تعاونها قطّةُ الدّار
وهي تسحب أحشاءها
إلى ما وراء السّور

الفراغ

الفراغ وحيدٌ أيضا
تأتيه كما البشر
نوباتُ كآبةٍ
فيكره جلده الفضفاض كمعطف الشحّاذين
يعاود جلوَ ملعقة أدمنت حافّة صحن وحيد
يتسلّى بمعرفة الوجوه في الصّور المقلوبة
على قفاها فوق الطاولة
مع أنه يعرف أن لا أحد

وما هذا الصوت المخشخش وراء العتبة
غير حديث الجرائد الضجرة في الأكياس
فيلبس الحذاء مقلوباً
ويتعثّر بآخر مثلث في سجّادة الغبار
ويخرج
يترك الباب موارباً
ثمّ يدخل منه إليه

له حلم يقظته الخاصّ كأنْ
تتمطّى قطّةٌ على جلد خروف قرب المدفأة
تتبادل كتبٌ السّباب على الرفّ
تدور طاسٌ على نفسها
من غنائه الطّروب في الحمام

هنا، الفراغ وحيد أيضاً
يلقي عنقاً معوجّة على طرف الكرسيّ
ويأخذ بالشخير
الشمعة الكهلة
تحكّ بالضوء ما تحت إبطيه الخشنتين
وهو مازال منكمشاً على فراغه
في المكان ذاته
ولا يحسّ بشيء
إلا حين تخلع الغرفة بعضاً من ورق جدرانها
وتغطّي خصره المكشوف على برد قارس
يدخل إلى أوصاله
من هناك
من ثقب قفل الباب

حقيبة

قلْ لهم أنْ لا شيء لك في هذه الحقيبة
أيّة حقيبة؟
هي صرّة من كُمَّيْ كنزةٍ من صوف
أكبر منك بسنتين

ومثقوبةٍ أيضًا
من رأس السنبلة التي نفرت في الظهر
وهرّت من حبّاتها المئةِ
السبعةُ التي تزحف نحو الأكتاف

واقْصُصْ عليهم أنْ هذا المشط الخشبيّ
كان من شجرة صندلٍ نادر
لم تستطعْ أن تلقيَه في قبر أمّك
في غفلة من الملقّن
وتعدّها وصيّةً
قصتَها تلك عن قمل غريب يصيب النّاس
إذا توالت عليهم سبعٌ عجاف
لا تطرده إلّا رائحة هذا الدفّ العتيق
وما هذه الملفوفة بشريط من قميص نومها
إلّا فضلة الحنّاء الأخيرة

جوربان ليلكيّان
مفتاحٌ
أنت خلّصت قلادته من طيّات عنقها عليه
وأذهلك التشابه
بين ما تركه الخيط من بياض على لحم العنق
وبين مجرى دمعك بين الثديين
نظّارة سميكة
يلتحم ما بين عينيها
بعلكة قرباطيّة لا تكاد ترى
خمسة مسامير قرنفل

بعضٌ من بذور الآس
لفّاحةٌ عرضُها اصبعان
مشغولة من قطن حلبيّ
بيت إبرٍ من قشّ
وأنفاسٌ لن تشمّوها

وجرّبوا هل تسمعون صدىً ليدٍ
ترتّب أشياء الترحال
حتّى تعود بلا تلفٍ أو نسيان
أو تصادر في ظلّ أسلاك شائكة؟
هي أغراض درويش لا أكثر أيّها الدرك
قل لهم :
هي التي تهرب بي
وأنا الأمانة
هنّ هكذا الأمهّات
تحت التراب
ولا يعترفن
بأنّ حبل المشيمة خيطٌ
فينقطع

وجيز في سيرة الحيّة

كلُّ الحقّ على الجدّ أيّوب
كأنّما أربكه الفزع تلك المرّة
فخاب مضربُ الفأس عن رأس الحيّة
فاختفى بين أكوام الحطب
تاركاً منها تسعةَ أشبار وذنَباً أبرص

وصار يحسب كلّ شيء
إلّا أن يأتيه ويلدغ أنفه غدراً
في قيلولته المعتادة تحت شجرة التّفاح
ليدفن مجدوعاً بعدها بساعات

هي لم تكن كغيرها من الحيّات
فهذه تطلع للواحد من حيث يحبّ
طلعت لأمّي من سرير أخي الرّضيع
فظلّت شهوراً تخاف من حبل المهاد
وطلعت لأخي نفسه من قنّ الدجاج
ولا يزال يرى في البيضة عين أفعى تزاوره أينما استدار
ولابنة الجيران من الجبّ في دلو الماء
ولدغتها في حافّة الرقبة
فازرقّ نهداها قبل أن تموت
عانساً في الأربعين

ولي من وراء مجلّدات «سيرة ذات الهمّة»
في رفّ المكتبة السفليّ
لأصير أكتب من يومها باليسرى
بعد أن تحوّلت سبّابة اليمنى وإبهامها
بانكماش الفزعان، إلى جطل
ولأبي من طيّات مصلّاته القشّ
ليهرّ من حينها شعر رموشه
قبل أن يعمى خمس سنين قبل السّجن

لم يصغِ أحدٌ للخال

فقصّوا شجرة التّفّاح
وصاروا يشاهدون في منتصف الّليل
تفّاحاً أزرق يدرج في الدروب
لم يصغ أحدٌ للخال
أغلقوا كلّ الجحور برائب الكلس
فصار يخرج كلّ مساء من مدفن ذنب الأفعى
نملٌ بحجم الجدي

لم يصغِ أحدٌ للخال
فتحوا للثعالب أبواب الدجاج
فصاروا يشاهدون زحف ثعابين في التراب
تطول يوماً بعد يوم
وتنتهي كلّ دروبها
أمام باب مستودع السّماد
لم يصغِ أحدٌ للخال
ردموا بحجارة الصيرة الجبَّ
فصارت ترى العذارى فقط
جنيّاتٍ عرايا سوى من ثياب حيّات مربوطة على الخصر
يرقصن حول البئر المهجورة
وهنّ يتراشقن الماء الباخر

لم يصغ أحدٌ للخال
فما نفَعهم
أن يأتي زمّار غريب ويستدرج رأسها طرباً
فكان كلّما ملأ فمه بالهواء
تسرّب قبل أن ينفخ
من أسفله

لم يصغ أحدٌ للخال
فاصطياد أفعى بخابية من عسل
سوف يحوّل الحاكورة إلى عشّ دبابير

لم يسمعْ أحدٌ صراخ الخال :
«لا تحرقوا الدّار، لا تحرقوها
ففي الحالتين أنتم لن تسكنوها»

الشبّاك

منذ قليل كنت هناك
كما إطار لصورة صبيّ وبنتين
يرتقبون المغيب
ليسمعوا خشخشة أكياس تصعد الدرج
منذ قليل كنت هناك
أفكّ عقدة الستارة عن خصري
وأستريح من الحراسة
وأجمع، كما كلّ يوم، أصدقاء اللّيل
الزيزان وأمّات الفراش وأفراخ العطريّة
وأقصّ عليهم ليلة جديدة من حكايا شهرزاد

منذ قليل كنت هناك
أنتظر حتّى يكفّ الباب عن صريره
ووشايتي للجدار المقابل
بأنّي كنت أكبو في الضحى

وأفسح لغبرة الدرّاق أن تمرّ نحو المخدّات
وأنفتح على مصراعيّ
لناي حزين في الظهيرة
وأطاوع للأولاد، دون حيطة، مدّ رقابهم
عن حوافيَ في المساء
وأدرك من عين قفله
حسدي على رفعة مستواي
ويبقى هو يلوح بين ذراعَيْ زاوية كأسير

منذ قليل كنت هناك
ألبس قميص الغبش المطرّز بالأسماء
ليعرف الجميع أنّ اللّا لون لون وشفّاف أيضاً
قبل أن أُشاهد وسط الرّكام
الدمَ الذي تربيّت على رائحته
يحيط بي كإطار
نتفَ الستائر والأكياس
مازالت تلتمع في الدّخان
ولا شيء لأحكيه لا شيء
أنسحبُ من طريق المنقذين
كي لا تنال من أقدامهم
خشباتي التي كشّرت عن مساميرها
في وجه الحريق
وأنسندُ بما كان ظهري على جذع
ما زال واقفاً لشجرة كينا

وأسأل :
لماذا ركامُ الدّار أكبرُ منها؟

وكيف يكبر الصغار في الجثّة قبل الأوان؟
أتلفّت أبحث عن أثر لبابٍ فلا أجد
فأصيح من قلب بلّوري المهشّم :
لقد ظلمتك كثيراً يا باب!
سامحني

وذاك فراق بيننا

لم أكن أعرفه ثقيلاً إلى هذا الحدّ
حتّى لم ينحملْ معي
ظلّيَ الذي عاندني وراء الباب
أغريته:
إنّ لنا خلف ذاك التلّ
شمساً قريبة
سوف تلقي عليك قميصاً من قصب

يقيك في سباتك الشتوي
من برد سيطول عليك
فترتاح من سعالٍ جافّ
تركته في رئتيك غبرة البارود
إن لنا خلف ذاك التلّ
أمَانا ما
فربما عدّتُ لأراقصك
فتقف على حيلك من جديد
ولا تظل هنا

ينهش جسمك الهش جُدَريّ الشظايا

قم معي
نمسح، عاوني، لا تتفرّجْ على بكائي
هذه البقعة من الدمع المعلّم على البلاط
فلا يفلّ الدمع غير الدمع
تأكّد من أنها ليست خلف ظهرك
تغافلني لتقفز
فتعلّق بين أسنان سحّاب الحقيبة
فلا يعود يندمل

قم معي
سآخذ لك
ظلَّ السروة الصغيرة
فتلهوان معا
كرسيَّك على الدرجة الأخيرة
ليستريح ظهرك من عقر الحصى

لم يأت معي
هل كان يحس بأني كنت أكذب؟
فمعروف عن الظلال
أنها تقرأ باطن قدم أصحابها
لتعرف إلى أين؟
وحين تحتار
يحسمها لها
أننا لا ننظر إليها عيناً بعين

لم يأت معي
وأنا لم أسمع يوما بأنّ ظلّا حكى
قبل أن يصيح
وأنا أعتل حسرتي
لأنزل في الغياب
«يا هوو لقد تركتم الباب مفتوحاً»

المطر

يشبهنا المطر
دعْك من أنّه لا ممسكَ له
فهو لا يطيق أن يستبدّ به غيمٌ
أو تسودّ الدنيا بعينيه
يفلت ولا يهتمّ
بأن تعلق مزقُ قمصانه
بين أسنان البرق
ويهطل عارياً

يشبك كنسّاجة ماهرة
خيطانَه في الجهات
دعْك من أنه يتعاطى مع الماء بفوقية واضحة
فهو لن يسلّم نفسه لفخاخ المزاريب
ولا لمظلات تخادعه كإناء مقلوب
ودعْك من أنه يخيب ظنّ العطشانين فيه
ويزخّ فوق البحر

كي لا يلوّث سمعته في النقاء
وينزل فوق جثّة لم تدفن
أو يجبل نحاتةَ البيوت المهدومة من جديد

فينسدّ شقّ الرجاء
على أحياء تحت الأنقاض
دعك من أنه لا يُرى جميلا في عين الوحيد
فهو لم يختر حضوره قطراتٍ في حضرة الماء
إلا خوفا من الوحدة
دعْك من أنه يدخل الشتاء كملحوقٍ دائما
فيمضي حتى قبل أن تُعتصر ثيابٌ بلّلها لفلاح تأخّر
او تمتلئ صحونٌ تحت الوكف
فهو لن يقطع الشتاء كضيفٍ مكروه
يصحّح للبشر بعض القراءات الخاطئة للسحب
أو يكشف للسذّج
بهتانَ نبوءة الشيخ المرتشي من تجّار البرغل «سبع عجاف يا ناس»
ثم يمضي في الحكايات كعنصر تشويق

يشبهنا المطر
فهو كواحد منا
له ظلّ يخاف عليه
قد لا نرى له هذا الظلَّ بالعين المجردة
ولكن ما إن تُغمض عينيك بعد وابلٍ منه
حتى تلمع له أجنحة من ملح
دعْك من أنه أكثرنا حبّاً للأرض
فتراه ملموماً من أقاصي الكون
كي ينهمر بين أصابعها وتشربه بحفنة كفّ

فهو يعرف قبلنا
وربّما من أيام الغمْر الأوّل
أنّ القبر ما هو إلا ظلّنا المحفور

الشجرة الأولى

هذه البنت الأخيرة لسلالة التفّاحيّات الطيّبة
لم تكن هكذا
تميل بجذعها نحو الأرض
كأمّ تداري ولدها الوحيد من العاصفة
نراها في الصباح تكفكف صمغها
وتسوّي عليها معطفَها الورقيّ
ثمّ تحاول أن تشدّ جذعَها من جديد باتّجاه الشمس
فلا تستطيع

فقد كنّا نسمع صوت فقراتٍ كما لامرأة مكسورة الظهر
نحلٌ أزرق، بأجنحة فضفاضة، بيضاء
يأتي اثنتين اثنتين
كمن تشتركان على حمل نسمة
تحطّان على غصن غريب في الأعلى
ترتشفان لا نعرف ماذا؟
ولكنّهما، وهما تغادران، واحدة واحدة
تنثران في الفضاء القريب تلاويح لمّاعة
عصفورٌ نحاسيّ كأنّما أخرس، يطير إلى الخلف
أكبر من السمّن قليلا

يقضي النهار كلّه، بين ذاك الغصن والسطح
ومساءً يغيب
ثمَرٌ نادرٌ، لا مزّ ولا حلو ولا حامض
على شكل بزّ الرضّاعات وبلون أزهى

لم تكن هكذا
نسقيها ترفض الماء
ننكت حواليها تعلق الفأس بالتراب
وتنمو كلّ يوم أضعافَ ما يتوقّع الناظر من شجر
ولمّا ربط الخال بجذعها كبش أضحيته
ولم يعثر في اليوم التالي
سوى على الحبل يثغو كجدي صغير
قال: لا بدّ من عرّاف البساتين

فكنّا كلّنا نتبّع معه:
الغصن الذي في الأعلى طُعم ملتحمٌ
ناجح ومتّحدٌ بالمضيف، لا خلقةٌ
أصابُعه منبسطة إلّا الإبهام
من أيّة جهة نظرت تومي إليك: أن تعال

الوحيد من بدأ يبكي
هو الجّار الذي أضاع يداً من أشلاء ابنته الرضيعة
في القصف الرّابع للقرية

الجرح

هذا جرحُ حرب
اسألْ أمهر الجرّاحين
سيظلّ مفتوحاً، طالما هي فاغرة شدقَيْها، تلوك الأرض
لا تأخذُ حافّتيْه غرزاتُ الإبر،
وهي تجرّ وراءها لحم الميتة كذيل
هو نافذٌ وعميق
لا ينفع فيه الكيّ
فلا تسرفْ في الخرافة

وتتركْ
للكلاب أن تلعقه
فليس في لعاب شفاء
وإذا كان لابدّ
شقّ حبّاتِ تين وضعْها مقلوبةً على ضفّتيه
أو انقعْ قشور لحاء الصفصاف بحليب الماعز
وطهّرْه بنقاطٍ منه
وشتاءً، خذْ بعضاً من أوراق الزيزفون
اخلطْها ببعض من إكليل الجبل
واغلِها جيداً بماءٍ فرات
واشربْها ينطرد الخوف
وصيفاً، رشّ عليه من رماد الحصير

المضفور من أعواد الزلّ الحورانيّ

يخفّ النزف وترطّب بالمرّة منه حمّاك
حتّى خلاصة الصبّار السوريّ
شمّها كلّ ليل
تطرد عنك منامات القروح الخبيثة أو البتر
خذْ لبَّ بلوطة، غبرةَ كمأة، سبعَ سنابل، قبسة زعترٍ بريّ
بذرتي قطن، نقصَ محلب وكشتبانَ سيرج
دقّ كلّ ذلك بين حجريْن سوداويْن
واخلطْها بعسل لا تعلّقُ شمعَه الملكاتُ
إلّا في نقوش الأقواس والعمدانِ العالية من الآثار
واغلِها على نارٍ وقودُها قصرينُ العدس
وخذْ كلّما نخر الوجعُ رئتيك رشفةً
تهدأ وساوسُك وتغفو

هذا جرح حرب
لا تهاجرْ به
فلا تندملُ جراحاتٌ كهذه تحت شمس غريبة
لا تتباهَ به كنيشان
وتشحذَ على كتفيْه صدرَ المحفل
إنّ مثلَ هذي الجراح عفيف
يتكهّف
يتغوّر، يمتدّ
وربّما بنى في القلب صواعدَ ونوازل من عَلَق
وتجمعت خثراتُه الفاشلة تحت ظهرك كحدْبةٍ تعتلها حتى القبر

هذا جرح حرب
لن يلتئم حتى تكفّ الأرض عن رمادها
فبعشبِها وحدَه

بلا ندبات
وبلا دربٍ قرمزيّ
يتخيّط هذا الجرح

الشجرة الثانية

الشجرة التي تقايسنا على ساقها
وكنت دائمًا تؤشّر طولي أقلّ
كي أظلّ أنا المربوع وأنت القامة الممشوقة
لم تعدْ أطول منّا نحن الاثنين
لم ننجرْ من أغصانها لا أوتاداً
ولا باكوراتٍ ولا مضاربَ حاحٍ
ولم نكسرْ لها جطلًا

لم ييبسْ لها غصنٌ حتّى ينقرف تحت أقدامنا الرخوة
ونحن نصعد كي يفوز من يرى القادمين من الحرب أوّلا
فيحظى بالبشارة، ويُعفى من دوره في سقايتها ثلاثَ مرّات
الشجرة التي لم يخربْ لها عشّ
في مواسم الحساسين يومًا
التي ليس عرسًا كاملًا
ذاك الذي لا يغمّسُ بظلالها صباحيّتَه
ولن ينال الذاهبون إلى الجامعة دعاءَ اليسر
إذا لم يتخرّجوا في الدبكة
فوق ترابها المرشوش بعطرها المتعشّق في الرئات

لا لم تهرمْ لتنطويَ على الأرض نصفين

لم ينخرْ أعاليها نملٌ
ولم نسمعْ يوماً
أنّ في بلادنا نقّارَ خشبٍ
ولم يُسمح لواحدٍ
أن يحزّ منشارًا بأضلاعها

والكلُّ يروي الحكاية نفسَها
كيف أعمى دخانُ أوراقها
دوريّةً كاملةٌ للفرنسييّن في حفلة شواء
من عصافير كانت طوال عمرها
دانيةَ الأعشاش
الشجرة التي لم تعدْ أطول منّا نحن الكلّ
بنصف جذع
تقف الآن بين أكوام الفحم
ليست أكثر من مقعدٍ لنار شامتة
الشجرة التي نكمل،
نحن الآن، الناقصَ من شموخها في الصّور
لا يمكن أن تقصر أمامنا كدغلة

وصرت لا أميل من كلّ الروايات
إلّا إلى أنّها من كثرة ما تلفّتت حواليها
تفتّش عنّا ولا ترى أحدًا
إلّا غرباء أنوفهم كالفؤوس
انهدّ حيلها
وما هذي الشقوق التي في الجذع
وهذه الجذور البادية على مطرح الدبكات
إلّا أدلّة على أنّ شجرةً حاولت ألّا تموت واقفة

لقّاطات الغسيل

نحن لقّاطات الغسيل
قدْ لا نملأ العين
لكنّنا، في وسواس العمران
لا سكن إذا لم يمرّ من هنا
من تحت آباطنا
نحن لسنا على الحبال سلحةَ عصفور
أو ريشة تتعّلق حتى يمرّ المهبّ

نحن الجيران الخرس
نحن المدمنات، شمّاً، على دواء الغسيل
نحن من يجيد بمهارة تراسل الحواس الستّ
نعرف هذي الثياب لمن؟
من محرمة الجّدة حتى جوربَي الرضيع
نشرب مما يرشح من قطرات التعب
ونعقد على خصورنا هذا النابضَ المعدني
ونرقص على صدى
لن تنتبه إليه
غيرُ تلك التي ما يزال رنينُ أنوثتها في الأصابع الناشرة

نحن لسنا الفاضحاتِ
نحن نعلن النظافة على الملأ
ولا يمر على أكتافنا، اسألوا الحاويات، الدنسُ
نحن لقاطات الغسيل

لم يفطنْ لنا أحدٌ
أخذوا المفاتيحَ، ألبوماتِ الصور
أسماءَهم من لوحة الباب، عددَ الدرجات
مرايا الجيب، قصّاصاتِ الأظافر
والخيوطَ التي ماتزال عالقة بالإبر

وتركونا
كلٌّ واحدة تُطبق فكّيها على صدأ
وتشكو، كما العجائز، أن لا أحد رفع رأسه قليلا
وشاهد حسرةً في العينين أو ظهراً مطويّاً على رائحة الأحباب
لا تقولوا لنا: مشغولون بالحرب
والميت أَولى من الحيّ
والجماد إنما له الله

نحن لقاطات الغسيل
لم ينتشلنا أحدٌ من ركام
والبعض كان يطوّح بنا بعيداً في الحريق
كأننا حجرُ العثرة في طريق النبش
ولا يدري أننا نحن
مَن يعرف
من نُتف القماش، أصحابَ هذه الجثث
ونعرف بيتَها، وعمرَها، وابنة مَنْ هي؟
نحن لقاطات الغسيل
من خشب أو بلاستيك معالج
أو عقدة لا ترى بين غصنَين في شجر الشوك

لنا

على الشرفات
على الحيطان
على حافة شبَاك
على زند عاشقة تغسل في النهر
على مسامير عربة غائصة في الوحل
وكذلك على الأهداب
لنا ظلٌّ رطب
ولنا
في أعناق النّاصعين يتامى

الأسْود ليس لوناً

إنّه لم يكن لنراه
لا لأنّه ليس من بنات الطّيف
ولا لأنّه يمتصّ كلّ الألوان
الأسْود ليس غياباً
المسوه
فله سماكة، حجم، برودة
صلابة، خشونة، ممرّات وأمكنة
وكثيراً ما يحضر أمامنا كشخص رديء
كأنثى عنكبوت، كغراب مصبّر

ولم يكن يوماً مجرّد إشارة
لماضٍ معتم في راية أو لوحة
ولم يكن نعتاً سلساً ومعتاداً

ليومٍ أو تاريخٍ أو حظٍّ أو سوقٍ أو كوميديا
المسوه
وتابعوا ويلاتِه
هكذا بالأصابع الرّاجفة نفسها
فهذه الأرملة لم تكن نحيفة
قبل أن تلبس ثوبَ الحداد للمرّة الثالثة
في أربع سنوات من ثلاثينها الأولى
وليست جميعُ المرايا
يتحدّب ظهرها من شريط على كتفٍ من زانٍ

وما كلُّ الشجر يدجّن في النّار
حتّى صار الهواء يتعثّر بأكوام الفحم
فتُشرّح بالماس جثةُ البلّور والنهرُ وكذلك الخريطة
المسوه
كيف يكبس على الأضلاع كصخرة
كلّما هبط اللّيل!
وكيف ينتفخ قلبُ المقنوص من رشقة بارود
وكيف تشرم حفنةُ جلبانٍ شدقَ رحى!

المسوه
الأسْود ليس لوناً

بلد

هي ما هي؟
حتّى كلّكم عليها
ليست أكبرَ من شامة في أطلس العالم
تضاريسُها لا تزيد عن إبهام طفل

في مجسّم الكرة الأرضية
هي ما هي؟
لولا أن تتقاطع خطوط الطول والعرض
ما مرّت بها

فهذا
ينجّر من عظامها عرشاً
ولا يستريح كما الله في اليوم السابع
يسند بقحف الرؤوس كرسيّه المهزوز
ويخلع عليها ألقابَه
أو يحاول عنادَ الأنهار كي تكفّ عن مزاجها
وتلحس حذاءه كالقطط
ويستر بالخريطة عورةَ الجغرافيا
وذاك
يربط إلى صواريها بغلتَه ليستريح في الطريق إلى القدس
وذاك يفكّر أن يلامس من حصّتها على البحر
رأسَ الرجاء الصالح
ويلبسه عمامةً سوداء

وذاك
يقيس بأقدامه الحافية المسافةَ التي قطعها الأنبياء
قبل أن يلقوا عصا الترحال في جبّ مجهول
وذاك
يفتّش عن سرّ التوابل التي منحت ملوكها عمراً مديداً
وفحولة لا تنضب كي يطعّم فيها نكهة البيتزا
وربما في الصدفة

يعثر على قرط لعشيقته
لم تلبسْه واحدةٌ من أميرات ما بعد الحربين
وذاك
يأتي من بلاد الواق واق كي يرممّ قبر آدم
ويسيّجه بأضلاعه
وذاك
الذي جاء كي يعالج سرطانه بحليب النوق

وذاك
جاء كي يفسّر منامَ أنّه لن يموت وحيدا
وذاك
وذاك
يفتّش في كثبان الرّمل عن كَبِد هند
ها كلّلكم عليه
خذوها نصيحة مني:
الآثارُ كما النباتات تذبل في غير تربتها
وإن كان لا بدّ من أن تسرقوها
فرفقاً ببصمات النقّاشين
ولا تنقلوها على ظهور الجحاش
حتّى لا تنخدش الأنفاس العالقة عليها كلحاء

لا تأخذوا عيّناتٍ من مطرها لتكتشفوا إكسير الحياة
أنصحكم بتحليل دمعةٍ واحدة
لا تدمّروا عمرانها لتكتشفوا
كيف نبني بيوتنا من خبز الشمس؟
مرّوا بأصابعكم على كفّ فلّاحة ولكن بحنان
لا تتعبوا في حساب كثافة السكّان

فقط قسّموا عدد القتلى على عدد البيوت المهدومة
لا تبعجوا بطن الحوامل كنساء مخبر
في التنقيب عن ثرواتها
فقط، جيولوجي فهيم
يَعرف من لون عيونهن أحقابَ العقيق
لا تمزّقوا مبيّضة الحلم عن عُصاب

إذا فشلتم في تحديد مصدر العبق الأخّاذ
اتركوا تتبّع الطريق التي مشاها جلجامش
وتخريفات الاسكندر
والكذبة عن جيش عرمرم آخرُه في القسطنطينية
وأوّلُه في دمشق
ولا تنبشوا في أطلال الخانات على طرفَيْ درب الحرير
فقط ليكن عالِمٌ منكم
يعرف بمواطن الكمأ وأكوام الخلد
ها كلّكم عليها
جرّبوا ما تريدون
الكشفَ عن الطائفة في المصل
الفتّاكَ من سلالات الكلام
اللقاحَ الذي يعطى في التراب ضدّ عدوى ارتفاع الرأس
وكذلك السباحةَ في دم مرّتين
ولكن
فقط لا تقولوا: انتصرنا

طائر أبو منجل

أيّها الأصلعُ كرجل عجوز
لم يتركوا لك جرفَ صخرة
لتعيش وحيداً في القصيّ من البادية
كراهب في السّهب
لم تعطهم كما القبّرات واللقالق والحبارى
أوّلَ الخيط ليصطادوك من ذنَبٍ كحشرة
لم تفهم مملكةُ الطير
أنّك نباتيّ
وأنّك تنفر من طعام الماء الرّاكن في السبخات الآسنة

واخترت التأمّل في سيرة السابقين من البشر
وكلّ ظنّك
أنّه هنا في صحراء تدمر
لن يعثروا عليك
حيث كلّ شيءٍ شائك حتّى الهواء
حيث لن يتابع فهيمٌ واحدٌ رحلة البحث عنك
طالما ستقطع عليه هدأةَ استراحاته
حشرجاتٌ تتسرّب من عمق الأرض
وتعلو كلّما مرّ سرب بطّ بريّ يطير عكس السّراب
كم ضيّعتهم وهم يقتفون ظلّك في نسمات الصّبا؟!
ورجع أغانيك في شقوق الكمأ الناعمة
يتردّد في الرّمل مبحوحاً كموعظة حكيم
أو يردّده الزقزاق الشّاميّ وهو يهاجر:

«تشارْك تشارْك تشارْك»
من أين لك هذه المسحة الزرقاء على الجبهة والحاجب؟
كيف لهم أن يصلوا إليك؟
ألم يقل المتقاعدون في المحميّات :
لقد انقرض
كما كلّ الطيور التي تحلّق على نحو مستقيم
ولم يبق منه غير الحكايا في سهرات الحَمَاد

أحلام

هذه المرّةَ،
سنفرشها على شرفة السّنة الجديدة
هذه الأحلام
ونرتاح من عتلها على الظهور المكسورة
طوالَ التقاويم الوعرة كتاريخ عبوس
ننتهز أنّ الليل عتيق، مُتلَف، نعسان
يدير لنا قفاه
وهو يداول نوبته كحارس للأبد

سنقول لها:
يا سنةُ! انتقي منها ما تريدين
تدفّئي على لهيبها، إن شئت، فالبرد قارس
كما العادة
في هذه الألفيّة
ها كلّها تحت جنحك، في مرمى بصيرتك

لم نربط لها خيطاً بأصابعنا
الملتهية بطيّ العناوين كورقة للنسيان
كلُّها كلُّها
كي لا تقولي: وحدهم السوريّون،
يخدعون المستقبل، إذ يكثرون من القرابين
فيعمى عن حمولةٍ زائدة
معلّقةٍ على الأكتاف كزوّادات الترحال

هاك
هذا ضغث
هذا ليقظةٍ مجهضةٍ وهي ترتّب نهاراً
لم تكن لتقوى على ثقله
وهذا صدئ
افركيه على جرح في الأرض يرتدّ مندملاً كوشم على زند
هذا، فضفاض كثوب مضحك
وذاك، ضاق فلا يصلح إلّا لدمى الأولاد
وهذا، جفّفناه على النّار الهادئة للصبر
فتبخّر فيه البريق كقعر جرّةٍ مائلة
وهذا، من بقايا طموح فاشل
كان على وشك أن يصير أيقونةً للمنال
أمّا ذلك الذي تحدقين فيه كلغز
ليس لنا، لا نعرف كيف ولا متى؟
علق بخطواتنا كالشوك

انظري
قارني
أو ليس للأحلام

قسماتٌ
ملامحُ
ومْضُ اللمحة الأولى
فتشبه أصحابها؟
افعلي ما شئت
قايضي بها على اليوم الناقص من شباط
ولا تقولي: السوريّون
يستغلّون الازدحام قبيل الصبح
فيتنكّرون بأحلام مستعملة
هي كثيرة يا سنة
كثيرة، فلن تمرّي بها كلّها
فوقتك محدود بساعة الصفر

خذي الباقيات
أقرئيها على مهل
احكيها لأحفادك
أو كرّيها وانسجيها كواحدةٍ من أساطير الشعوب
ولكن سنسأل قبل أن تصيح مفاتيح أبوابك
كديكة الفجر
ألم يخطرْ ببال السّنة المغرورة كعروس؟
لماذا نحن والأحلام هكذا؟
نقلّ وتزداد
نكبر وتصغر
تماما كما اللّيل والنهار
يطول الواحد منهما على حساب الآخر

ما لهذا الموت!

لا يشبع
تركنا له الزيتونَ العتيق
أن خذْ ترابَه جبّانةً لك
والجذوعَ لتجّار الفحم
واترك لنا ولو أغصاناً عُوجاً
لا لنعقدَ عليها خرقة استسلام
فلا شيء أبيض غير الأكفان

بل لكي تؤشّر الأمّهاتُ مطارحَ أكبادها المدفونة
فربّما ضاع تحت هذا الوحل المشاعِ رُفات
ومازال كلَّ صباح
يتمسّح بحيطان البيوت
ويدخل على ما تبقى من الريحان
من خيوط الفيء النحيفة
ويسحب من عروقه الغضّة
ماءَ الحياة
أوصلْنا إليه تحت جناح الحمام النافق رسائل لا تحصى
أن كنْ عادلاً مرّة يا موت

فنحن ملأنا شدقَيْك بالقرابين
كي نخرج من عهود الغاب
وتصيرَ هذه الأرضُ أحلى
وما زال يجعل من خريطتها نطعاً
فتضيق إلى أقلَّ من فكرة

ويتسع هو كوطن
ما لهذا الموت؟
لم يبق حيّاً يرزق إلاه

الفزع

أعيدوا لي فزعي الطريّ
العواءَ الذي في الوديان
يعطّل عليّ النوم وحيداً على السطح الذي
العفاريتَ التي تتسلق حبل الدلو ان نحن متحنا ماءَ الجبّ في الليل
العقارب تغريها قشور الفستق المهملة على المصطبة
الحيّةَ التي أُلّفت في حاكورة الرمان
ولم تبتلع غير الدجاج المبكر في النوم
ومعاول الحفارين عن اللقى والتّحف النادرة

الحرامي الذي يسرق حقيبة المدرسة
إذا نمنا ولم نكتب الوظيفة
القملَ الذي ينطح بقرون سودٍ
إذا لم نستحمّ صباح الجمعة
الجنية التي تلبّست جاسوس الآغا
فطقّ عقلَه وصار يمشي بلا سراويل
ضرباتِ الابر إذا تلصّص واحدٌ على الجيران
أعيدوا لي فزعي الذي من عمري
شفوياً له طراوةُ الحكايات
لا يستيقظ مع الناس

وينمحي ككلام الليل
لا يترك رجفةً في ركبة أو جفلةً من مكان

أنا لا أريد فزعاً يفزّع
جافاً وقاسياً كوجه من الفولاذ
له جدارٌ فينكسر
له حرّاسٌ وكلابٌ مسعورة
له رسمٌ على الأرض يقتفيه رعاةَ البارود بحوافر الحرب
وحين لابد من الفزع كي تتمرّن الروح على الفجأة

أعيدوا لي فزعي البلديّ
فربّما أحظى، في أقلّها، على جسارة ديك

الوصيّة الأخيرة

في جيب القميص
الجيبِ الذي من جهة القلب
للقميص المنسول من بين الأنقاض كناجٍ وحيد
ما تزال ملفوفةً على هيئة زورق وصيّةُ الصّغرى
ومع أنّها مقصوصة على عجَل من دفتر مدرسيّ
ومع أنّها ضعيفة الإملاء
لكنّ الخطّ الذي ينبىء برسّامة
يجعلك تقرأ بنودها بيسر

1. كعك مسمسمٌ ليس دائريّا بل كعين الجَمل
2. لوازمُ عيد ميلاد لبنت في الخامسة

3. حَلَق وشالُ قصبٍ وقبقاب من مخمل أزرق
4. ماسورة صمغ وورق مقوّى من كلّ الألوان
5. تعود سالماً، كما تقول العمّة :
قبل أنّ يسدّ الطريق قُطّاع الحَيْل والضنا

عنّاب

وأنا من هناك أيضاً
لا بدّ، في الطريق إلى البيت، من أن أمرّ بمفرق العنّابة
وأتذكّر كلَّ مرّة
أنّي ما شفيت من الرّمد
حتّى دقّت أمّي بعضاً من لحائها
واكتحلت به
وما عاد لابن عمّي، ملك العتابا، صوتُه
بعد السجن

إلّا حين مضغ، سبعةَ شهور
وَرَقَها على الرّيق
ولازم أنّك، مثلي، سمعت أو رأيت
كيف في صيف 1982
قصّتها دوريّةٌ من الأمن العسكريّ
فقد كانت النسوة يجمعن حبّاتِها
ففي شراب منقوعها
شفاءٌ من فسادِ المزاج
وقرحةِ المعدة، وحكّةٍ في البدن
لكّنّ عناقيد من الأزهار الصفراء

ظلت، في اللّيل تتدلّى
من شرفة صاحبها كتيجان

وحين شاع أنّ العنّاب
هو نفسه شوكُ المسيح
اعتقلوا الكاهنَ في الحيّ المجاور
وطوّقوا الكنيسة
ليُخرجوا من قبوها أكياساً منه
ومع أنّ مفرزةً بركت محلّه
وسدّت كلّ الشبابيك المطلّة
على نقطة علّامنا في زيارة الغرباء
لم ينس بهجتها أحدٌ
ما زال اسمه مفرق العنّابة
وما زال ظلّها السميك لا يرى لأيّ كان
ما إن يعرفك حتّى ينهض
وتحلّق من أوكار خفيّة
عصافيرُ بنّيةٌ إلى محمرّةٍ

كنّا نظنّها انقرضت
عندما كانت، وهي تحاول الفرار،
تعلق رقابُها الصغيرة بالأسلاك الشائكة

حرب

تبّا لهذي الحرب
خرّبت عليّ لا وعياً كان يسقي ضلوعي كنهر أبديّ
وألمّ أنا محصولَه من القصائد متى أشاء

فقد صرت في أحلام اليقظة
ألبس قبّعة الإخفاء
وأدخل على القاتل شرفتَه المطلّة على الدم
وأرشّ في عينيه مسحوقَ الزنزلخت
وأنسل من بوطه
خيوطَ الربّاط

وأهبط إلى الشوارع كوردٍ منتصر
أمّا في المنام
فأمتهن قتلاً
ربّما كان رحيماً في شرعة الغاب
كأنْ أدخل عليه وهو ينام بعين نصف مفتوحة
وأضع أمامه أكياسا صغيرة من «دقّة» الأولاد
أجبره على لعقها كلّها كقطّة صغيرة
وعندما يثخن لسانه كنعل
أطلب إليه أن يتلفّظ بجملةٍ
كنت زرعت لغماً خفيّاً
في آخر حرف جرّ منها
تبّاً لهذه الحرب

البارحة

لا أعرف على أيّة واحدةٍ من عتبات النوم
رأيتني أنا وأنا الميت
جفلانين أمام باب الدّار

وكلّ منا يدفع بالآخر كي يدخل قبله
والبابُ كان يضيق ويعلو
حتى ما عاد يتسع إلا لواحدٍ إذا وارَب
فصرت أجمع ظلّي إلى ظلّه
كي يسبقني، فهو اللّدن العاري

دخل أنا الميت
وانغلق الباب على يدِي
كفُّها في الداخل والذراعُ تشدّني فلا أتفلّت
وكنت كلّما حاولت النظر من ثقب الباب
رأيت مسلّةً من حديد محمّى تكاد تفقأ عيني،
واستغرب كيف لم يحترق خيطُها القطنيّ بعدُ
وكذلك أصابعُ كفي
القرسانةُ كعالقة بين قالبَي جليد؟!
أشدّ يدِي فأنشدّ أكثر
حتى يلتصق بخشب الباب خدّي
فأصغي، أسمع
أغنيةَ «ربما» لفيروز
وأخجل من كلّ هذه الأخطاء وأنا أردّد معها
موسيقا «كارمينا بورانا»
مناغاةَ طفل، في الغالب، بنت

عبدَ الباسط يجوّد في سورة الكهف
من «أمّا السفينة» وما بعد
عتابا أمّي على وقع مدقّ جرننا الحجريّ
قهقهاتِ صديقي الشيوعي وهو يجادل نفسه بصوت عال

صوتَ رصاصات، على الغالب، «بي كي سي» تخترق أوراق شجرة الغار
الوحيدة
صياحَ ديك مبحوح
وسمعت
بكاءَ أنا الميت حادّاً كعويل الندّابات
فصرت أبكي
حتى ذبت بدمعي كجثمان من ملح

العازف

ولأنّك
ابنُ الماء السّارح
تلهو بقوقعةٍ، بفركِ حفنات الحصى، بصَدفِ المحار
تنفخ
تأتيك أفراخُ الّلحن
تدرّب أقدامُك على رقصٍ بارعٍ في عرس
تحاول
بعظمٍ مثقوب، بقرونِ الحيوان، بعيدانِ القصب

فيكون الحنين، يكون الصدح، تكون النّاي
لا تريد الثأر
فاستلهمت من جثّة ولدك المعلّقة على غصن شجرة
آلةَ «الكنّار»
لم تمثّل بسلحفاةٍ نافقة
اكتشفت أنّ ما تبقّى من عروق يبست في قفصها العظميّ

تحرّكه الرّيح أو أصابع الأطفال
فيعطي موسيقى
ومنذ اكتشفتَ النغمَ الشجيّ
في أوتار قوسك التي كانت أمعاءَ دابّة

لم ترمِ على فريسة سهماً
وجعلت من قوس الصيد «جنكا»
كلما نقرتَ على أوتاره
تخلّصتْ حنجرتُك، آلتُك الأولى
من نشاز صراخك بين كفّيك للحرب

ولأنّك سوريّ
لا يشبع من احساسه بإيقاع الأرض
يجعل من جذع من جلد من خيط
من شعرة ذيل حصانٍ من ساق سنبلةٍ
من لثغةٍ
موسيقى
لا يصغي لنحيبك أحد
وها ترحل في أصقاع الدنيا
تتبع خطوَك المنهكَ موسيقى حالكة

وهكذا دواليك...

من هنا مرَّ الرصاص
من بين ساقَيْن تسرعان إلى مفرق العمر
لأطفال كزغب الدرّاق

من حدقات جنود متّسخين بالخوف
وبقع البويا المكبوبة على أكياس الرمل
من لفافة سطح علبة السردين
المفتوحة ِعلى زنخ نوبات المساء

من بين آخر حرفَيْن
من رسالة منقّطةٍ بالنبض على شاشة جوّالٍ أخرس
من بين جنحي فراشة عالقة بأسنان الجعبة
من بقايا عشّ في أطول شجرات الحديقة
من طحال جورية لم تتوّجْ موعداً قبل الفحص
من بين خشبات الأبجور المتروك جانباً
من فردة حذاء لم تنقلبْ على فرار صاحبها الكهل
من حيث تبدأ بالميل
غرّةُ العشب الذي خلّد رائحتَه في كمشات البابونج
من اليوم الزائد في شباط الكابس على صدر آذار
من شقوق شفتين معضوضتين بالندم

من عروة الثدي في قميص المرضعة
من ثقب الحلق في أذن طفلة جاءت بعد وحم على التفاح
من الثقب الوحيد برئة الناي
من بين إصبعي إشارة النصر
من العين العوراء في نظّارة المؤرّخ
من بين الورقتين الأوليين في الملزمة الأخيرة
لرواية لم تنتهِ لكاتبٍ مغمور

من صمام الأمان بدولاب النجاة لمهاجر في البحر
من مشتلِ الوردة

في ضفيرة البنت الناجحة في امتحان الربيع
من بين ضلعَي الورب الخامس للعاشق
من الخريطة المطوية كبوق
ومرّ من تحت إبط الغيم

نجوى الميت

أنا لم أكن أعرف أني سأموت
وأنا مازلت في بدايات السؤال عن الموت
وأنا مازلت لا أفكّر فيه
طالما أخي الأكبر على قيد الحياة
اسألوا عني
كنت في الخامسة حين مات جدي
وجدوني في آخر الليل
أحاولُ تكسير الأريكة الوحيدة

لأنها كانت مغتَسلاً
لعجوزٍ يربّي لنا القطط
وينثر للطير على بياض الثلج حبات ِالحنطة
فأتذكّر شاماتِ وجه العمّةِ العانس
وهي تلفّ وجهي في زمهرير كانون
أحاول بأصابعَ مرتجفةٍ خلعَ المسامير الصدئة
لتخرج هذه الخشبة من فناء الدار
وكنت أعرف أنه لا يحبني
لأني ابنُ كنّته الغريبة

ولكني لا أريده أن يموت
وكلّ ظنّي
أن هذه الواقفة على أربعٍ من خشب
كما في الحكايات
شدّته من ظهره الأحدب
وسحبت من أظافر قدميه الروح

اسألوا عني
أخذت صِفراً في الوظيفة الشهريّة
في مادّة علم الأحياء
لأنّي لم أصطد جرادةً
وألصقها بالصمغ على دفترٍ بلا عشب
وأُغمي عليّ مرّات في دروس المجهر
حيث تُشرّح أرنبٌ أو ضبٌّ أو ضفدع

اسألوا عني
لم أكن في جنازةٍ أبداً
فما زلت، وأنا ميت الآن، لا أطيق الترّف
اسألوا عني
المظاهرات التي بلا دبكة لا أكون فيها
فأنا علّمت ابن أختي، على كتفَي هاتين،
كيف يراقص الأرضَ قبل الحبو

اسألوا عني
الرصيفَ الذي نقطت عليه دماءُ صديقي
كيف كنت أدعوه ليختبئ خلف ظهري

فلا تفضحنا، إن رأته، نجومُ الظهر
فتصرخ في المغيب المتعب للأخذ بالثأر؟
أنا لم أكن أعرف
أنّ كل الذين لا يريدون الموت ماتوا

المُصوِّر الضوئي

هو قبل أن يصبح مصوّراً
كان يرى بعينه الواحدة
ما لم نره نحن
وكان يردّد :
«الأعور في بلاد العميان ملك»
وهو قبل عروضه في صالة الحيوان
كادت تأخذ عينه الوحيدة
أفلامٌ وقصصٌ وحكاياتٌ عن مملكةٍ مظلومة
وظلّ طويلاً يربّي الجِراء

يعطيها ألقاباً ويزيّنها بالأطواق والخلاخيل
يتأمّل عين الدّيك مليّاً
ولا يصدّق عمى الخفّاش ولا أنّه من الثديّات
حتّى شرّحه بيديه
واختار طبّ البيطرة عن عشق
ويدافع: الحيوان إنسان بالفطرة
ولا يترفّق بروعتهِ إلّا فنّان

كلّنا كان يعرف

أنّه كان يتابع سيرته في التعريف بالوحش
وأعراض التدجين ومعنى الألفة
ويحاول، جهده، تحسين سلالات اللّواحم
والحدّ من عفونة الأرض
وتغيير المصطلحات
«العلف، الاجترار، التكاثر اللاجنسيّ، التهجين»

وأنّه لم يكن يريد النيل من هيبة الدّولة
حتّى يخسر كاميراه برأس حربة
وعينَه، تلك الوحيدة، بالعدسة تُخرج بؤبؤاً لمّاعاً
فوق صفيح من لهبٍ في سجن تدمر
حين، في المعرض الأخير
صوّر قطّة تلعق اللّبن عن رغيف محروق
وخروفاً يلفّ على رقبته حبلَ الدّلو
على حافّة جبّ مهجور
وصقراً مخاطَ العينين
يمسك بمخالبه شديدةِ النّقوش قطعة هبْر
وصوّر، أيضاً، كبشاً أعرج يحمل خِرج الرّاعي

وكسر الهاء

2024

إلى صديقي الحاتميّ
محمد محسن ويشو

أريد وطني

ناقوس

قالت: كي تستحضر الأحبّة في المنام
انقطعْ عن صورهم في الألبوم ثلاثة أيّام بلياليها
واستعضْ عن عطرٍ يحبّونه بعرقَيْ ريحان
وضعْهما تحت كلّ إبط عِرق
ولا تنصتْ للأغاني التي ارتبطت بأيّامهم
وصارت تأتيك بهم بلا ملامح
ولا تستحمّ في اليوم الرّابع

وقبل منتصف الليل
دمدمْ بحنين بلا دمع
بنشيدك لبنات الشوق
وأطبقْ على آخر مرّة رأيتهم فيها
جفنَيْك نصف إطباقة ونمْ

ولكنْ لا هي قالت ولا أنا سألت
إنّ هذا لا ينفع باستحضار الذين ماتوا
فما زلت منذ صباح اليوم الخامس
تشدّني من زيق قميصي يدٌ لعروق قبضتها شكلُ خارطة البلد
ونفخ منخريْن
كأنّه
لشامت بعينَيّ اللتين تكسرت أهدابهما من الأرق
يمزق صوراً ويطيرها في مهاوي الروح
ويكبس على أضلاعي
حتّى لكأنّي أسمع انكسارها تحت ركبة قاتل محترف

الشمال

خلقت أحبّ من الجهات، الشّمال
شماليَ الخاصّ بي
فعلى الشّماليّ، كنت أغفو على ظلّ سميكٍ
وأطمرُ في الأرض نواةً من المشمش
لتطلع شجرةً، وتكبُر معي

الشّمال
الذي تسكن سماءه دببةٌ في الليل
وأحاول بعينيّ المذهولتين
تغيير خطّ النّعش
إلى جهة في ما وراء العتم
وأبادل بين أكتاف بناتِه كي يحملنه طويلًا
فيمرّ من أمام بيتنا

شماليٌّ أنا
حيث يظلّ الثلجُ أطولَ على الحواف
وأحفن منه كأساً وأصبغها بربّ الورد

والشّمال شمالي أنا

وليس هذا
الذي يقصّ برده مسماراً أعلّق عليه
هناك في أقاصي الرّوح، وداعاً لم يكتمل
يلفح بغربّيه دمع المشتاق فيجمد

وكلّ صباح يلقي في حضنكَ خيباتك
كأنّما لتشرب منقوعها وتخلص

رسالة

أين أنت أيّها الشّاعر الصّغير؟
أنا زيتونتكم الوحيدة
صرت الوحيدة مرتين
فلم يعد في حاكورة الدّار غيري
فلا درّاقةٌ لتتابع سيرة الحبّ على خدّها
ولا رمّانة لتجعل اتّحاد حبّاتها مشبّها به، وأنت تصوّر الألفة بين النّاس

قل للدالية: وداعاً
صارت عيدانها مكاحل لقدور الجوعى
فما عادت تطامن عناقيد حصرمها؛ كي تمحو أمّيته بإلقاء قصائد لأبي نواس
ولن تمنح كرسيّك الحديد ظلال الأكفّ وهي تصفّق لك كما في مهرجان

الكرسيّ يسلّم عليك، ما زال هناك
غائصاً إلى ركبتَيه في التراب
كأنه لن ينسى لك؛ أنّك التقطته من المكّب وأنقذته من معامل الصهر
تمحو صدأه كلّ آذار قطّةٌ، اختارت أن تلد على لبّادته التي كانت مخدّتك العتيقة
أنا زيتونتكم الوحيدة
توءم مشمشة الجيران
توقفت منذ صيف 2012 عن طرحها

وصارت تنحف كما أمّ ثكلى حتّى باعها خشباتٍ مختار الحارة

قل: «البرتقالات من ثاني شتاء نامت على الأرض من حملها ولم تقم»
ورتل «عنق الدنيا» الذي كان يحرسنا من شلح الذباب
أخذته جرّافة العسكر في طريقها وهي تجعل من ركام بيت «صباح» متاريس
أنا أمّ الزيزان
هل نسيت ما كنت تكنّيني به؟
أنا التي حيّرك أخضري الدائم
ورحت تبحث عن سرّي؛ ففشلت كما سابقيك
ومن يومها اخترت أن تبوح لي بدمعك وأغانيك

صحيحٌ أن ظهري انكسر؛ منذ أن انهدّ الحائط الغربيّ عليّ
لكنني ما زلت أتّكئ على ذراعَي جطلك الذي خبّأته في حفرة تحتي
لأنهض، وأقرأ عبارتك التي كنت تكتبها معكوسة فوق بخار الشّاي على بلّور المطبخ
«مرحباً يا صباح»
وما زلت أرسل أحفاد أغصاني؛ لتأتيني برسائل «صباح» التي لم تستلمها
وأخبئها بالحفرة نفسها
سأقرأ لك واحدة
«كنت الأجمل في المظاهرة وأنت تهتف للحريّة
وصلني مهري حبيب القلب»

وقال

قال، وما صدّقناه:
لا تعطوا لقيصر شيئاً
فهو لا يحاصص الله حتّى في الموتى

انظروا كيف يتركهم هكذا بلا توابيت
وكيف تمثّل بنادقه في القطط النافقة
وكيف يغار من حجرٍ نحتٍ ليس له
فيهدم توقيعَ النقّاشين بصاروخ

وقال:
يحسّ الإنسان بالوجع من يده المبتورة
وإلّا، فلماذا كلّما شكّل كمّ قميصه عن أختها أخذته الحسرة؟
وبساق واحدة لا يمشي غير الشجر
فلا تتباهوا باليتامى!

وقال :
يجوع الجنين
وإلا فلماذا تطوي ظهرها الحامل

وقال:
يصير الدم ماءً
وإلّا، فمن أين لنا كلّ هذه البُرك
وهذه السبخات؟
ويصير، إذا شئتم، صباغًا وهّاجًا
لرايةٍ أو قميص

وقال:
خذوا الحكمة منّي أنا -المجنون-:
لقد صار الموت عاديّا
فقط

لأنّها لم تعد حلوةً هذي الحياة الملعونة

وقال:
لا ترفعوا جثث الأطفال أمام الكاميرا
فهي «العوراء» التي لن تعجب «العميان»
وقال وما صدقناه:
كلّ هذا، وسترون بأعينكم
هذي التي ستأكلها الخيبة
كلّ هذا
إنما كي يقف الحفل دقيقة صمت
على أرواح من ماتوا

قال وطنا قال

أنتَ أنتَ الذي أخذت أوّلَ خمسين من عمري
ألقيتها في جبِّ الكهولة كورقِ تقويم فائت
ولم أقل شيئا
اكتفيتُ بالأحبة يعدّون لي كلّ مشرقِ شمسٍ
خطةً في سباق المشي إلى حلمٍ صغير
أصغر منك، فأنت كبير الكلّ
قلت: خذوا أعمارَكم من جيبي
ولا تنفقوها إلا بما أحلُّ لكم من الهواء

ولم نخف، فداك، من أنك كنت ترسلُ
في رئاتنا غبارًا لا يرى
يقولون: «تراث المعارك الخاسرة»

ولم نخف من دمٍ يراقُ رخيصًا
ولكن من التبرّع فيه في البنوك المصابة بالسّل
فأدمَنّا لعبةَ الشهيق كمرضى الرّبو المزمن
كي يتسع الصدرُ لحبك
ألستَ كبيرنا؟ كبيرَ الكلّ
أنت من أدخلتنا في خرافة الكرم الحاتميّ

وقلت بأنك بيتُ من لا بيتَ له
فصرتَ كمن يتصيد ريحًا من الجهات
توزع في كلّ ذكرى من هزائمنا المجيدة
زوبعةً وتلقي للفقراء أوتادًا من فحم كي يشدّوا من أزرهم في العراء
أنت من حشا في آذاننا سيَرَ السلف المارق
كي نأخذ العبَرَ ونحتاطَ لغدر الأعداء
من جِلدتنا الموسومة بشعار كما البغال المستوردة من بلاد الأعاجم

لم أقل شيئا مثلي كمثل الكلّ
عضضنا على اللسان
كممنا أفواهنا بالأكفّ المقشّبة
ولم نعط القفا المخروق من ثيابنا للكاميرا
كي لا يشمت فينا عدوٌ او غريب
قلنا: إن في تراكم الغصات نفعًا للهتاف القادم
فتشققت حناجرُنا كخشبٍ عطشان
نمنا، فداك، على حصائرَ من مخمل ماضيك
وكلّ رأس سنة، كنا نقلّب أجسادنا ذات اليمين وذات الشمال
وندخل في منام جديد
خذ ما شئت كما اعتدنا عليك، خذ

ما تبقى من ظلّ أسوارك
فالوطني يكتفي بظلّ عودٍ أعوج
خذ النطفَ التي لم تُخلق بعد
فالوطني يتكاثر من غبار الطَّلْع في عشبة أو من قشرة تفاح لاقحها ورقٌ
فالت من دفتر

خذ، تستحق، خذ أكثر مما تحتاجه
في محن تترك لها مهارة كعبيك
وأنت تفرّ إلى الوراء
ولكن اترك لنا حجرًا عفويّة داشرةً في الأرض
حجرًا ما مسّتها أصابعُ نحّات
ولا مشت على ظهرها إلا دودةُ الأرض
حجرًا يمكن لأي واحدٍ أن يؤوّل شكلها بوجه حبيبٍ غاب أو ولد سيأتي
حجرًا
كي نضعها هنا، هنا مكانَ هذا القلب

طبّاخ السمّ

معروفٌ للكلّ
لم تكن يوماً أظفارُه ناعمة
تعرفها خدودُ التلاميذ الأوائل
كما تعرفها بيوت الخلْد
فهو الوحيد الذي اصطاده ووضعه في درج طاولة معلّمة الحساب

معروف للكلّ
يتحرّش بالغلمان وهم يقتلعون العاطلَ من شتول البصل الأخضر

من ينقل «لمفرزة المفرق» حجومَ أرداف الفلّاحات، وأسماء عشّاقهن
من أدخل نوعاً جديداً من القمار :
«أن يسكن الرّابح قبالة شرفة مدير النّاحية يومين عن كلّ فوز»

معروف للكلّ
بالخطّ النظيف، وفي النقل الحرفيّ عمّن كان يروّج لتفسيرٍ مختلفٍ لله وللعدل وشروط الرّجل الصالح، لأناشيد نزارٍ وكذلك لنقاط حمر في الجغرافيا

معروف للكلّ
هو من جلب الحرّاسَ الغرباء على أكياس لا يعرف ما فيها إلّا الجنّ الأزرق
وحضرته أغراهم، بين النوبات، بعاهرة وضرس حشيش وبطحة عرق
هو من جدْولَ أسماءَ المتخلّفين عن «خدمة العلم»، والعارفين بزنزانات تدمر، والمنادين خداعاً بحقوق الحيوان وحصّته من عشب الأرض
ونسخها بيديه لفروع الأمن، وبدأها، كالعادة، بأسماء المجتهدين

معروف للكلّ
المتعهّد رصْفَ الطرقات على الورق
وبعثاتِ أوربّا الشرقيّة
ولجان الحلفان على المصحف في تعديل شهادات الطّب العليا
والترشيح لدورات الرّكن والقفز المظليّ وإعداد الطّليعة لمجالسِ الشّعب
لمفاتيح قضاة ونقابات الفنّانين
وأئمّةِ الجوامع الكبيرة ودور الإفتاء

معروف للكلّ
من جمّع الحشود الغفيرة في المظاهرات الموازية وأمام الأفران

واقترح البنادقَ المتروكة بين القبور الواضحة
واللحى المندسّة بين سيقان الجينز
ومحْو كتابات الحيطان ببخّها بالدم البارد
وتسـيير دوريّات إلى محلّات الدهّانين والكشـف عن بصـمات الخطّاطين في مخابر الجنائيّة
وكذلك نصْب حواجز من نسوان صوناً لشرف الحزب القائد

معروف للكل
أنّه سيرفّع إلى رتبة عريفٍ
قبل أن يعثروا عليه في خيمة حجّياتٍ مهجورة على طريق الرّقة
هكذا
منتحراّ بمشط رصاص في الفم

أريد وطني

أريد وطني
ولو رمادًا أريده
فلنا في الولادة منه تجارب وحكايات
ولو طينًا أريده
فنحن أوّل من شواه ألواحًا
ومحونا أميّة التراب
ولو حجرًا على حجرٍ أريده
فليس أسهل على السّوري من العمران

أريده
ولو سبخاتٍ غمرت مطارح لعباتنا في السّفح

ففيها كانت تخدش اللقالقُ بمناقيرها
كآباتِ سعد الذابح
وقبل أن ترحل تعلّمنا بالنّحيب
أن لا جذورَ على السّطح

أريده
فهذه الصور الملصوقة عليها ملامحُ الأحباب
لن تشفي غليلَ المشتاق
فليس بوسعي أن أتقرّى القسمات
وأنا مغمض العينين ولا أصدق
وليس بوسعي أن أشمّ تحت الآباط
ما تركته المطرات الأولى
ولا أن أدسّ أنفي في عبّ قمصانهم؛ وأصغي لقرابة في النبض والأنفاس
فهي صورٌ مجرد صور
قبل أن تصلني انزاحت عن لهفتم مرتين
وليس للصورة أن تضع القلب
في ما لا يفهم من ايقاع الضمّة
أو النظرة الأولى وجهًا لوجه

أريده
فليس لصوت الهاتف الجوّال بحّة
فرجع المناغاة أشبه بنقيق الضفدع
كما لاتصل التنهدات ولا نبرات العتاب

أريده
أنا أعيد ترتيب ما تبقى من أغراضي فيه

وكلّ المخبوءات عن عساكر شرهين
أخرجها وأنشرها تحت شمس منهكة
الرسائل
المكتوبة على الزوايا المقصوصة
من دفاتر المدرسة
مسودات القصائد

والصورة الأولى بالأبيض والأسود
أمام قلعة حلب
وشريط كاسيت كاسيو
مكتوب على لصاقته الحمراء بخط الثلث
«رباعيات الخيام»
وشريط سوني
«نينوى»
وكل ما احتفظت به شقوق الحيطان
من صدى اللعب في الأزقة
سأصغي إليه بأذن المنصت
بلا نشاز من قعقعة سلاح أو خطباء جوّالين

أريده
هو وطني

ولو كلّما قام من حرب
نشبت أخرى وتكشّف باطنُها عن عدوّ جديد
فلي في حضن واحدة من حاراته بيتٌ بوسعي أن أسمّي بلمحة
كلّ زاوية ولو ركامًا، فيه
ولي من سمائه حصّة الغيمة

ومن الهواء ما يكفي لتطيير طائرة من ورق
ولي فيه مثلما للكلّ
قبرٌ فرديّ
ولي فيه مخطوطُ ديوانٍ صغير
عن وجع القمر

سراقب

[1]

عندما في الطريق إلى الثانوية
على الحائط القصير لجبّانة «أم حمرا»
كتب العاشق الصغير؛ أحبّكِ يا «س»
لم يفكّر أحد به، بل راحوا ممسكين بأوّل الخيط يكملون، كلّ على هواه،
حروفَ اسم الحبيبة

وعندما في الطريق إلى جنازة الشهيد الأوّل
كتب على الحائط نفسه؛ أحبّك سراقب
عرفوه،
تترك أصابُعه على خشب النعش أجنحةً من طباشير

[2]

من يوم يومها
تذهب سراقب للحصاد وتعود بموليّا جديدة وألف بيت عتابا
تنسل من طريق الحرير ما يليق بالأحمر القاني؛ وتنقشه في ثياب العرس كي
تكسر سواد أيامها

بلا جبل تسند إلى ركبتيها شمسًا غشّاها بريقُ الملح العائد إلى البحر بلا كفن
تدلّل المسافات بالمفارق؛ كي يمرّ من بين عينيها النهار

[3]

من يوم يومها
يخلع البدو على أطرافها عباءاتهم ويدخلون حقول القطن آمنين
وبكفّها المفتوحة ككتابٍ من تراب
تمنحهم بين سطورها أساتذةً وكنّات

[4]

من يوم يومها
أجمل بنات السهل
لا شيء مرتفع بها
غير القصب
والجباه النافرة
وسقف الحب
وعمود الإذاعة الرابض منذ فرنسا
كخازوق للغيوم الجوف

[5]

وعندما في الطريق إلى تخوم دمها
لا تجد غير ثياب الحيايا؛ كي تضمّد الوديان
تكتب نجمةُ الصبح
على ظهرها هذه المرّة
«أحبّك سوريّا»

البيت

لو كنت أعرف أنّه هكذا، بلمحةٍ سينهار
لكنت تركته هنالك
مائلًا قليلًا في المنظر الطبيعيّ إلى اليسار من دفتر الرسم،
أسفلَ جبلَيْن يحتضنان شمسًا غاربةً ورفَّ طيورٍ سُود
له شبّاكٌ وبابٌ خشبٌ
أمامَه فرسٌ وحذاءُ ولدٍ صغير وسروتان
ونهر صغيرُ وأربعُ بطّاتٍ سابحاتٍ فيه

أو تركته مكعبًا من حصىً
يتربّع على تنكةٍ عتيقة
تحت ظلّ التّينة العجوز
يستريح على سطحه النّحلُ
قبل أن يسرح في العراء
أو تركته حفرةً في صخرة أطمر فيها حبّات من الحنطة
لزوج من الدوريّ الجوعان
أو تركته الأوّلَ
في قرية ساحرةٍ من طينٍ حنون
كنت سأسقفها كلَّها
بريشِ العصافير العالق في الشّوك
وأطوّبها لأوّل بنتٍ توافق أن تمنحه عائلةً من ألعابها

أو تركته محاولة فاشلةً
من عيدان الكبريت

لتستريح في ظلّها النملات المجهدة
أو ظلّ غرفةً من اسفنجٍ عتيق
أختبئ فيها
كلّما امتشقت أمي قصّاصة الأظافر
أو لوّحت، في منتصف اللُعبة، بكيس الحمّام
أو ظلّ ببالي فكرةً، مجرّد فكرة
تكبُر معي كحصّتي من الوهم؟

أماكنت استرحت
من تأمّل هذه الحجارة التي كانت بيتي، وهي تحاول أن تنهض لاحتضاني
هكذا بلا حيطان؟

محاولة إنقاذ

كانت تريد يده اليمنى أيضا أن تسحب من تحت الأنقاض
فعلى ساعدها ترتسم شهوتها لفلقة درّاق
تذكرها منذ أن كانت كنقطة دبّوس
مرّت عليها بالشفة المعضوضة شوقاً إلى أبيه الذي من وحْمها لم يعد على السّاعد نفسه حيث يلذّ لها النوم وترتيب الخطوبات

كانت تريد يده اليمنى أيضًا، كي تسّلم عليه في المنام
ويطوي عنقها إلى رائحة تشتهيها كي تقلّد ببراعة حركاته، وهو يطيّر جلاءه المدرسي في السماء
كانت تعرف أن تلك اليد ستصاب بالعين
فحرمته من نصف الكمّ حتى الجامعة
فقد غطّاه بمريول الطّب الأوّل

كانت تريد يده اليمنى
كي تعاونها في النبش عنها؛ وترتاح من متاهات الركام
فكلّما قالت ها هي انتبهت
أن لا شامة فوق هذي الأيادي كما لا رائحة درّاق

كانت تريد يده اليمنى
كي تطبق باب غرفته للمرة الأخيرة
فلا يدخل الغرباء
ويعبثون بقناني العطر التي تقف الآن على الرفّ
بعدد سنوات عمره
وإن كانت الأخيرة مالت إلى سدادتها وانسكبت في غضون الخشب

رجاء ثان

أرجوك يا أمي!
ا تأتي في المنام
فما لي أضلاع
لأشدّ بها على نقاط حليبك الراشح من الوردات الصغيرة
في قميص نومك، آخر هدية
قد خلعتها على حجارة قبرك
وما لي يدٌ لأضعها في زنّارك

كي تكفّي عن وصاياك لي
بأن أخفّف من سباب الطغاة

وإذا لم أستطع، فمن الدّخان والحبر
وزلّات اللسان
لن تتعذبي بعد الآن في النهوض لفتح الباب
إذ لا أحد
لا باب

أنت وصيت، من «باب أنطاكية»
على مفاتيح فضّة لا تصدأ، وحين تعتق
لها ملمس الخبز ورائحة الحناء
وها ماتزال الوحيدة
من تحت المخدة
تصغي لحفيف دمعك في القطن
وأنت تغنّين بيت عتابا في هجاء الأقفال
لن يأكل المقص جلد إبهامك الرخو
وأنت تقلبين الياقات المهترئة في القمصان
أو تقصّرين بنطالًا من المخمل لأحد

لا تأتي
وتكتشفي أن بطّانيتك غطائي الوحيد
قد هرم فيه النمر
وعلق وبُرُه على شوك المنافي
غير أن حوافه
ما زالت تقلّد على خدّي وثير خدّك
والشّال المنقّش بعروق النعنع
لن تربطيه على شقيقة الرأس
وأنت تصرّين على جلَبَة الأحفاد فوق ظهرك
إذ لا أحد

وإذا ما استطعت النوم على حجر التّخم فنامي
ففي الأقل
هناك، بوسعها المفاتيح أن تنطمر
ولا يشكّ بمخبئها أحد
أو فاسهري ولكن
لا تتأكدي من السبعة في بنات نعش
فسوف تنبت أضعافا
التآليل بين أصابع قدمك الحافية
ولا تبوحي لنجمة الصبح
بأنك صرت مثلها في الوحشة
وأنك ما عدّت
تقلّدين إغفاءها على كتف القلعة
بنقشات الحرير على مناديل العرسان
فسوف يشلّ ارتفاع الضغط لسانك
في أرض لا يجاورك فيها أحد

لا تأتي
فلن اقعدك هذه المرّة ساعات
تحت شمس آذار؛ لتفركي ركبتيك الجعدتين كثياب الريح
فالغريب لا «يمون حتى على ظلّه» يا أمي
أعماك قبل «الماء البيضا»
أنك كلما تلفّت أخضرُ عينيك
يفتّش عن مطرحٍ لأحد
خدشته قشّةٌ هاربة من الركام
وقد فاتك الموت

لا لأنك في مقتبل الانتظار
بل لأنه لم يبق تراب يتسع لخدّ أحد
ولا أحد

لا تأتي
فربما إذا نجا قبرك سنلتقي؛ هكذا وجهًا لوجه
معي أغاني فطامك لأستدلّ بها
وحتمًا معك، هناك، بين ثدييك
صدى بكائي الأوّل

من قال؟

إنّ البيت كالشّاة
لا يؤلمه القصف بعد الهدم
وإلّا فمن أين لي أن أسمع أنين حجارته
يتردّد صداه
هنا، في صوف المخدّة

تحت جداريّة لعماد محّوك

أريدها أن تخلَص هذه الحرب، كفاها
لأرى أنّ ما يظهر كمحاولٍ الفرارَ من هذه الأكياس
إنّما هو حبّات الشعير المشاغب لا رموش جثّة
وأرى هذا الشّاش المبلّل بالجصّ

لا يُعدّ لساق أو ذراع، بل جبيرةً لأغصان الشّجر
لأرى كيف تخرج البيوت من رمادها
وتعلو كأنّما لتناطح الغيم في لعبة عناد

وكيف تعود أصناف الفراشات النادرة
ليعرف البحّاثون أنّ الأرض لا تلقي بألوانها على وجوه البشر فحسب
وكيف يعود المهاجرون بالقمصان نفسها
وقد تركوها تنكوي تحت حصائر المنفى
ويحملون الولادات الجديدة كشتول

أريدها أن تنتهي هذه الحرب
لأشهد السنونو وقد عاد إليه بصره المقلوع من رعد القصف
وهو يعجن القشّ بالوحل ليبني أعشاشه في سقوف كراجات الانطلاق
وأعرف أنّه لن يعاود الترحال إلى أرض الهند أو فارس أو خراسان من جديد

أريدها أن تنتهي
لنعرف أنّ غدا هو أول أيّام العيد
من الأراجيح وقد نهضت على حيلها في صدور الحارات
أريدها أن تنتهي
لأكتب في الحبّ والوجد الصّوفيّ
وأشطب من قاموسي كلّ الكلمات الّتي رادفتها الحرب
وأكمل يوميّات كنت أحياها، وأنسى
فقد صار عليّ الكثير من الشّغل
كأنْ أعيد ترتيب المكتبة
وأجعل الجدار الشرقيّ من البيت بلّوراً خالصاً
أريد أن أمسك بالشّمس من أوّلها

يا بنت

قلت لك، يا بنت! قد نتأخّر
فلا تتركي علبة التلوين المائيّ مفتوحة
فسوف تموت ألوانها من العطش
ولا تضعي حفنتك اليوميّة من القمح على حافّة الشباك
فإن اليمام لا يحطّ على الشرفات المهجورة
أمّا صورتنا الأخيرة فالصقيها على مرآة الخزانة
كي لا تشعر الحيطان بالوحشة
وهي تحرس ضحكاتك المدحوّة في عروق الحجر

لا تقل لي

لا تقل لي: قد يجمع الله الشتيتَين يا قيس !
فالأصابعُ التي تركت فحواها في مسك الدبكة
وشدَّت على البيارق
لا تُومئ لعاشق؛ أنْ تعال
ولا تربط في غصون الأشجار مناديل لإغراء النّحل
ولن تنسل من ظهرك جراح الواشين
ولن تخطَّ على ظلِّك في تراب البلد، رويّ القصيدة القادمة

انسَ أن لك على رؤوسها تعداد الذين خانوا
أو أنّها تركت على حواف ثقوب النايات
خيبات المواويل التي لم يَصحْها أحد
لا تقل لي: منازحكم كغيم عابر
ومع أنّها محفوفة الياقات، لكنّها قمصان بأكمام
ومع أنّها نُزُل قديمة للبقر لكنّها سكن يستر في الليل بكاء الرجال
ومع أنّها واطئةٌ جداً، لكنّها سماء
ومع أنّها خَرِبة كنقطة على سطح تفّاحة

لكنّها مسقط إصبع إلى جهة قديمة
لنازح مسحول على دمه نحو نجاةٍ مصادفة
ومع أنّها منداسة ولو بأطياف، ولكنّها بلد
يحظى باعتراف البحار
ولها أيضاً خريطة مقشورة من لحاء الجوز
ومع أنَّهم دمى محشوّة بالرعش، لكنَّهم أولادكم

تنقّلونهم من عشب الى عشب كأفراخ الحلم
ومع أنَّه شبه طريق ولكنْ له قدّام، هذا الدمع النّاقط على كسرة الخبز
مع أنَّه كقرمة حطب
متوقّدة بين أصابع الصّبح، لكنَّه قلب

لا تقل لي :
نحن أدمنّا على الخوف كما على رحيق التراب
كلّ الذي خفناه جرى وصار
فأين سنذهب بما تبقّى لنا من رجفات القلب؟
لا تقل لي :
الهارب لا يجيد الوداع
يداه مشغولتان بربط كمّي قميصه الوحيد كصرّة لظلّه
فلن يعتب باب إذا لم يردَّ عليه بالتلاويح
ولا شبّاك إذا ما نبّه حوافه كي لا تقع وهي تتناوق عليه
لترقب كيف تصغر قامته في الريح؟
ربّما وحدها يا قيس !
لوّاحة المفاتيح لن تغفر
فقد نسيناها عالقة من أكبر مفاتيحها بقفل عنيد

هكذا قالوا

قالوا: هما يومان
هيّا أسرعوا
لا تلمّوا الغسيل المنشور على الحبال
سنرجع قبل أن ييبس
ولا داعي لسقي أصص الورد

ولا لترتيب الأسرّة ولعب الأطفال
ولا لرشّ الممرّ بمبيد الحشرات

ولا لشدّ الستائر على الشبابيك
ولا لتغطية المزهريّات في غرفة الضيوف
ولا لجلي فناجين السهرة أو رفع الصابونة إلى مطرحها فوق المغسلة

هيّا
لا تسرفوا في وداع الجيران
لا توصّوا بشيء
قميصٌ واحدٌ يكفي
ربطة خبز، قنّينة زيت وعلبة حليب
عجّلوا
لا تأخذوا معكم أمشاطًا أو شفرات حلاقة أو معجون أسنان أو مكواة
دعوا كتب المدرسة مفتوحة والدفاتر
سيلحّق الأولاد تحضيرهم
ولن يأخذوا أصفارًا في الامتحان الأخير
قولوا للنسوة يخففن من البكاء،
حتّى لا ترتخي الإصبع التي على الزناد

ارفعوا الرأس عاليًا
حتّى لا تقلّ هيبتكم في عيون الآخرين
ردّوا الباب ردًّا بلا طقّة واحدة في القفل
ولا تمسحوا الغبار عن نحاسية الاسم المعلّق على عنقه
هيّا هيّا
انزلوا درجتين درجتين

واذهبوا، الشمسُ في ظهوركم
ولا تتركوا للظلال أن تمسك بأقدامكم
وواسوا بعضكم: النبيّ هاجر،
المؤمن منصاب
والصبر بلسم
ولا تلتفتوا إلى وراء
إلى مكان تعودون إليه بعد برهة

هيّا هيّا
هيّا
وحدهنّ العجائز أسرعن يهززن برؤوسهن، كأنّما كنّ أحسسن أنّها «طويلة»
فقد جهّزن منذ أوّل جمعة
بين قطن المخدة التي لن يتخلّين عنها
دفاترَ العائلة وسنداتِ التمليك
وفرطن في الصّرر بين حبّات التين اليابس، أطواقَ العقيق وسلاسلَ الفضّة

وفتَلن أمّات الألف في دكك سراويلهنّ
وهناك بين الأثداء
مصاحف صغيرة من الذهب
ومفاتيح ..

الأوغاد

يسرقون كلَّ شيء
الحصرمَ في الدّوالي التي كفلت يتامى الزّبيب
كسرةَ الخبز من تحت إبط شحاذة غفلت وهي ترضع ابنها في كراج الانطلاق

الكحلَ من عيون الصبايا المتأهّبات للعرس
ظلَّ السمكات المرحات في الماء العذب
المساميرَ من حذاء أتلفته الدرب
العناوينَ الجديدة للنخَّاسين

صررَ الأمّهات الأرامل وقد تركنها للأيّام الأكثر سواداً
الرغوةَ في أباريق الحليب
النصفَ الملآن من العين الدامعة،
الشاهدَ الوحيد
على براءة الجراد من قميص العشب
الخبرَ الأول في موجز الأنباء
سدادةَ أقلام الحبر الناشفة
الزرَّ الوحيد المتبقي في كنزة الريح
الخدرَ اللذيذ في الحكايا

التراثَ الملموم عن خصر الخوابي
سرَّةَ الخريطة
الهوامشَ في مخطوطات الحبّ
الأحمرَ في الخدود الخجلانة
نصيبَ الأنبياء في الثورات
ما يشبه اللوحات في الطبيعة غير الصامتة
ثقوبَ الإبر
التي تخيط فيما تخيط أكمام الفزاعات
الأوغاد

كان بوسعهم

كان بوسعهم
أن يمسكوا غبارَ الطّلع مسكَ اليد
ويتركوا لنا ملكاتِ النحل
نؤوّل في تشكيل أجنحتها
وجوهًا غابت في زحمة الموت
ولم يتركنا الّلعب
لنشبع من تأمّلها ونحن صغار

كان بوسعهم
أن يحفروا في الهواء
بحثًا عن كورسٍ يردّد منذ النّاي الأوّل
صدى الوجع الشفوي
كلّما هبّت شَمال أوصبا
ويتركوا حنجرة المغني
ليطعم منها، كما القطاة، أفراخَ العتابا

كان بوسعهم
أن يقولوا لغرفةٍ من طين :
لا تكوني مدرسةً فلا تكون
ويتركوا لطفلٍ لا يريد أن يكتب بقلم رصاص
أصابَعه التي ترتجف في البرد
لتمسك بأوّل الخيط نحو الجامعة

كان بوسعهم

أن يدخلوا في التراب حبّةً حبّة
يسدّون مساماته بفتات البارود
فيكفّ عن نضْح الماء في الخرائب
فلا يجربون النيشان
في عرق حويشٍ من الخبّيز مرّ
تحت إبط أمّ لسبع يتامى

كان بوسعهم
أن يتفاوضوا مع الخطّ الرّابع للزلازل
بأن يعجّل ولا تأخذه الشفقةُ بأناسٍ
سوف يموتون ثلاثَ مرّات
في أرض هي، منذ الطوفان، واقفةٌ
شبهَ واقعةٍ على شفا حفرةٍ منه
أو
أن يسحبوها، هي نفسها، من تحت البنايات
وتخرّ على أعقابها
فلا يقلع صاروخٌ عينَ شبّاك
ولا تفتش فردةُ بابٍ عن أختها
في زحام الجثث

كان بوسعهم
أن يضعوا في صدغ التاريخ
مسدسًا هذه المرة؛ أن اكتب

بلد

هي ما هي؟
حتّى كلّكم عليها
ليست أكبر من شامةٍ في أطلس العالم
تضاريسُها لا تزيد عن إبهام طفلٍ في مجسّم الكرة الأرضية
هي ما هي؟
لولا أن تتقاطع خطوط الطول والعرض
ما مرّت بها

فهذا
ينجّر من عظامها عرشًا ولا يستريح، كما الله في اليوم السابع
يسند بقحف الرؤوس كرسيّه المهزوز
ويخلع عليها ألقابه
أو يحاول عنادَ الأنهار كي تكفّ عن مزاجها
وتلحس حذاءه كالقطط
ويستر بالخريطة عورة الجغرافيا

وذاك
يربط إلى صواريها بغلَته ليستريح في الطريق إلى القدس
وذاك يفكّر أن يلامس من حصّتها على البحر رأس الرجاء الصالح
ويلبسه عمامةً سوداء
وذاك
يفتّش عن سرّ التوابل التي منحت ملوكَها عمرًا مديدًا
وفحولةً لا تنضب؛ كي يطعّم فيها نكهة البيتزا

وربما صدفةً؛ يعثر على قرط لعشيقته لم تلبسه واحدة من أميرات ما بعد الحربين

وذاك
يأتي من بلاد الواق واق كي يرممّ قبر آدم ويسيّجه بأضلاعه
وذاك
الذي جاء كي يعالج سرطانه بحليب النوق
وذاك
جاء كي يفسّر منامًا أنّه لن يموت وحيدًا
وذاك
وذاك

ها كلّلكم
خذوها نصيحةً منّي
الآثارُ كما النباتات تذبل في غير تربتها
وإن كان لا بدّ من أن تسرقوها
فرفقًا ببصمات النقّاشين
ولا تنقلوها على ظهور الجحاش
حتّى لا تنخدش الأنفاس العالقة عليها كلحاء
لا تأخذوا عيّنات من مطرها لتكتشفوا إكسير الحياة
أنصحكم بتحليل دمعة واحدة
لا تدمّروا عمرانها لتكتشفوا كيف نبني بيوتنا من خبز الشمس

لا تتعبوا في حساب كثافة السكّان
فقط قسّموا عدد القتلى على عدد البيوت المهدومة
لا تبعجوا بطن الحوامل كنساء مخبر

في التنقيب عن ثرواتها
فقط جيولوجي فهيم يعرف من لون عيونهن أحقابَ العقيق
لا تمزّقوا مبيّضة الحلم عن عصاب
إذا فشلتم في تحديد مصدر العبق الأخّاذ

اتركوا تتبّع الطريق التي مشاها جلجامش
وتخريفات الاسكندر
والكذبة عن جيش عرمرمٍ، آخره في القسطنطينية وأوّله في دمشق
ولا تنبشوا في أطلال الخانات على طرفيّ درب الحرير
فقط ليكن عالمٌ منكم
يعرف بمواطن الكمأ وأكوام الخلد

ها كلّكم عليها
جرّبوا ما تريدون
الكشفَ عن الطائفة في المصل
الفتّاكَ من سلالات الكلام
اللقاحَ الذي يعطى في التراب ضدّ عدوى ارتفاع الرأس
وكذلك السباحة في دم مرّتين
ولكن
فقط لا تقولوا: انتصرنا

الموت المقيد ضد معلوم

تريد الموت!
كنت مُت وحدك
واترك لمريم شبّاكها

كي ترشّ حبّات الكرميلا
فوق رؤوس التلاميذ يوم افتتاح المدرسة
كنت خذ الجريدة واترك له ساعديه
فهذا الرجل ينتظر منذ الصباح
أن يحتضن ابنه منصرفًا في أوّل يوم في الصّف الأوّل

كنت اترك هذا المستعجل يبشّر زوجته بالشفاء من سرطان البروستات
فبوسعها أن تنجب له هذه المرّة بنتا
بعد أن أخذت الحرب إخوتها الشباب
كنت انتظره حتّى يقفل مسعودٌ صندوق البويا
فربّما أكمل للخطيبة قسط الغسّالة الأخير
كنت خذ كلّ البقدونس
واترك للخوجة عنقَها الذي تعلّق فيه خمس أيتام
كنت انتظر حسّونا وراء ماكينات التصوير كي يكمل نسخ الأعمال الكاملة لنزار
كنت مُت وحدك
قبل أن تلفظ شجرة العشّاق ظلّها الأخير على قارعة الدّم

حلب

حلب

أنا لا يهمّني
إِن كانت هي أو أريحا
أقدمَ مدينة في التاريخ
ولا ما ينافسها من المدن: دمشقُ في الحرائق
أو أنطاكية في خطّ الزلازل
فهي أقدم مدينة معمورة بقلبي

أنا لا يهمّني
أيّ الغزاة كان أرحم؟
ومن هم السادة الفاتحون؟
ولا مخدة سيف الدولة التي حشاها
بما علق في عباءته من غبارِ معاركه في سدّ الثغور
فلن يرفع رأسي
سوى أني أحاول رؤيةَ عناق قلعتها لسماءٍ ترتّب غيماً
فوق مدينة ما تزال عطشى وهي تعرضُ حريرَها على الله

أنا لا يهمّني
أنّ تيمورلنك بنى تلةً من جماجم عشرين ألفًا من قتلاها
وأنّ آخر زلزال طوى ثلثَ سكانها في طمي نهر «قويق»؛
فقد صرت لا أهتمّ بعدّ الحصيلة
عندما أيقنتُ
من أوّل قطرة دمٍ مراقة
من أوّل صبح أراه بعيني يؤرجحُ شمسًا طريّة على كتفيها

أنّ قلب الموت أرقُّ من قلب الطغاة

أنا لا يهمّني
من أين جاؤوا؟
إذ كلما قرأت اسمَها في كلّ اللغات
تأكّدت، بحروفيّة العاشق، أنّ لام الحليب وسط اسمها، تقف بعناد
كمخرزٍ في عين التاريخ

عن المشتاق «ك»

أنت لن تدخلها هذه المرّةَ من باب قنّسرين
فاتحًا رئتيك إلى أقصى الطفولة للمكان
وأنت الذي صار بوسعك، كمدمنٍ على عبق المدينة القديمة، أن تصله
مغمضَ العينين
ولن تتسرّب حتى حجابك الحاجز
رائحةُ التبغ البلدي
توابل الهند، حبال القنب المجدول، الزنجبيل الواخز
لن تأخذك الدهشةُ؛ إذ كيف لا يصدأ هذا الحديدُ المصرّ على سلاسله في
حلقات المرابط

كيف لا يتعفّن قعرُ الحياض
لن ترفع إلى سقف الخان عينيك
لتمحو بالضوء، ما تركته فيهما الرغوة الحارقة لصابونة الغار
ولن يدعوك أحد إلى موّال سبعاوي
على شرف والد العروس، فتأخذك الحرقة الأقسى، فتطامن ثم تبكي كما
كنت تقول لنا :

«بكاء الحنون بيات»
لن تملأ قرطلك الذي يشبهك، بما يشتهي الأولاد من خضرة الموسم ولحم الضأن

ولن تحصّل من ديونك شيئًا
فلن يحضر حتّى الفلاح البطران
ولن يضحك أحد على نكتة مرتبطة باسمك كمثل، «في الحرب لا يشتغل سوى تجار الضراط»
ولأنك لن تدخلها من باب آخر
فقد دارت عليك الأيام
كي تجرّب نصائحك عليك :
«الحنين لا يجبر كسران الخاطر»

الباب العاشرلحلب

أنا واحد منهم
هؤلاء الذي دخلوا حلب
من بابها العاشر
من حيث لم يدخل الغزاة
ولا المبشّرون بحلم العروبة
ولا تجّار الحرير
ولا الرحّالة الباحثون عن لقىً ابتلعها الملح في ضفاف نهر الذهب

دخلت مثلما يدخل الطّلاب الفقراء
ببنطالٍ كان لأخي الأكبر

وحذاءٍ بنصف نعل جديد
وبعينين تلتهمان الأفقَ الممتدّ
من كراج الانطلاق حتى شجر الجامعة
لم تكفِ روحي
دبكاتُ الأعراس ولا «بشمارياتُ» الصّيف
ففتحت لها كلّ أضلاعي
لتعلو في مسرّات حلب

السهراتُ التي غنّينا فيها لفيروز
والشيخ إمام، والقدود، على أصولها،
في بحّات محمد خيري
والموليّا السراقبية
والجديد من شجن العراق
لم تكف روحي
قصّة حب لفتاة تزوجت قبل أن تقول لي :
وداعًا
أو تردّ لي قصصَ محمد عبد الحليم عبدالله
والطبعة الأولى من «المصابيح الزرق»

فبعد بكاءين على الشرفة، وذات ثلج نادر
ارتجف القلب
كأنما ليحلّق مثل طيرٍ من قفص
لم تكف روحي
أن أنقّط دمعًا على ورق أصفر
كلما وصلت رواية رومانسية إلى عقدتها
ومات واحدٌ من العاشقين
في الأرياف الساحرة

فنزلت درج «مكتبة الفجر»

وما زلت لمّا أصعد من ذلك القبو بعد
رغم أني بعت كلّ ما اشتريته من مجلدات
مقابل مدفأة كهرباء بوشيعة تالفة
لم تكف روحي
فقلت لكلية الآداب و «قد كانت سفينة»
أنا أحبّ السباحة في الحبر
هاك كلّي
واجعليني أتخرّج فيك
ملّاحا في خضمّ الكلمات

عمّار

الذي لم يصطد في يوم ما، عصفورًا، لا بحجر ولا بفخّ ولا بجطل
ويجفل حتّى من صوت المنشار
تأكل القطّةُ عشاه
ولم يعد مرّة من المدرسة بمبراة
له حواف الرغيف وللآخرين قبّةُ الزعتر والنعنع
وإذا ما اشتدّ البرد غطّى حتّى دمى أخته بجوربيه الصّوف
وفي آب كان ينزع سترة القنّب عن الجرار حتّى لا تختنق أفراخ الفخّار

عمّار
الذي إن قالت له بنت: «صباح الخير»
نقط العرقُ من باطن قدميه

الذي في الصفّ الرّابع
حفظ «جزء عمّ» وعواصم دول العالم ومعلّقة لبيد وأسماء القمر من الهلال حتّى البدر وأبيات الشعر في سيرة سيف بن ذي يزن
ولكنه، ثلاثةٌ لم يحفظها قطّ، جدول الضرب، والميزان التجاري لسورية، ورقم بندقيته في الجيش

عمّار
الذي لم يشتر في عيد فردًا أو إصبع فتّاش أو مكعبات جارحة
ولم يربح في لعبة؛ ففي مثلّث الأجلال يخسر ضاروبه، وفي مكسرة البلبل يخسر سنّ الصيّاح وكذلك، الحذاء حين يفشل في تجاوز صديقه الفاشل بالقفز فوق ظهره

عمّار
الذي لا يحبّ أن يُرسم سهْمٌ في قلب، وأن يخدش العشّاق خدّ الورد بالكلمات وأن يقلّل المزاح من هيبة الآنسة
عمّار
الذي شدّد بالدمع على عبارات النهاية في «بين الأطلال اذكريني»
ورسم بالشمع من «أحدب نوتردام» زواج كوازيمودو،
وبالكوفيّ خطّ «طريق النحل» على جدار العلّية

عمّار
المغرم بالنهايات المفتوحة للقصّة وسرقات الرحابنة وعبد الوهاب وتجويد الطبلاوي من الحجاز سورة مريم، وحُبِّيْ رابعة العدوية وموقف شارلي شابلن من حضارة أمريكا

عمّار
الذي إذا ما أضعناه وجدناه في الحفلة الأخيرة في سينما الكندي

كفيلنا في المكتبات والمقهى وعربات الشواء وأجرة الباص
عمّار
المعتقل بتهمة صيدلاني ميداني
والخارج بتهمة حيازة مدفع محلّي الصنع
ملفوفا بصحف لم يقرأ منها غير تاريخ اليوم والبرج والكلمة الضائعة
لن أصف حضوره تحت جداريّة العلّية
لا احتراما لميثاق
ولا لفظاعة المشهد
ولكن كرمى لقداسة الجميل في عينيه

بالفحم، شارع بارون

لا، هذا الشّارع ليس هو !
فلا يماماتٌ تكسر الصّفرة
من صحن بيّاع الموالح
ثمّ تحلّق على بعد إصبعين
من الصيّاد الذي تقاعد بعد أن عوره الخردق
ونكايةً، تسلح فوق دفتره «اليانصيب»

ليس هو
فلا مكتبةٌ تملأ الزاوية بوقار عرّاف
وما إن تضعها في ظهرك حتّى تعرف
أنّ كلّ الطرقات إنما تؤدّي إلى القلعة
وهذا الرّماد
الواصل إلى عيون إشارات المرور

يوحي بأنّها احترقت وهي بكامل عناوينها
وهذه الأكياس الممزّقة
فوق ما كان رصيفًا مقابلًا
توحي بأنّ دفاتر ما تزال تحت الأنقاض

لا ليس هو
فهذا لن تعبره برشاقة
وأنت تستطلع جريدة طازجة
لا ليس هو
فأنت، بعينين آسفتين، تسقط على الصورة جميل المطارح :
مفرق انتظار
البلاطة التي حظيت بحطام زجاجة عطر قبل أن تهديه
أوّل نقطة يبادرك فيها البنّ
ويغريك بالكرسيّ نفسه في المقهى نفسها
وأنت تكوم أمامك مسودات دواوينك الاولى

لا هذا الشارع، ليس هو
تقرّب الصورة أكثرَ أكثرَ
كأنّما لتدخله مرّة أخرى من صورة
فلا تستطيع
فتطامن إلى ركبتيك
وتنكبّ على وجهك فوق أرضٍ غريبة
بفضل السّقوط الحرّ للدمع

أبو فاس

في حلب، في المدينة، وأنت تدخل من طرف السويقة
يدلّك إلى سوق العطّارين، نداء شجيّ كما كلّ أصوات العميان: «أبو فاس»

يقف في الزاوية كعمود آبد
يربط إلى عنقه رفًّا من خشب معتّق
يرتّب قنانيه الصغيرة منسّقة كما الخواتم في جام الصيّاغ
وبمهارة ساعاتيّ يناولك ما تريد

للّينِ في مفاصل المسنّين
للوجعِ الواخز في رسغ العاملات في قطب الخرز وتعشيق الحرير بالقصب
على مناديل العذارى
لتكبيرِ النهد
لتغليظِ الشفاه
لدرّ الحليب في صدور المرضعات الفقيرات
لعودة ِالشيخ إلى صباه
للشقيقة في رؤوس المخطوبات غصبا إلى أبناء العمومة
وللخائبات النصيحة: أن لا علاقة للعشب بإنجاب العاقر وتطويل القامات

وعكسَ ما في الشّام يدلّ التائهين
الفلّاحين بالجهات
البنات بتعداد المفارق عن سوق الذهب
الأصوات التي هدّجها الكرش بـ«إذا ما وضعت في ظهرها بيّاع العجّة»
الواجدين ولدًا ضائعًا بأقصر طريق إلى الجامع الكبير
والمازحين بدم غليظ بمكر مقصود إلى تحت ساعة باب الفرج

يعرف الجيل الخامس من أصحاب الدكاكين
وأيّهم أولاد الجديدات من الضرائر
يعرفهم جميعًا
الكريمَ ابن الأطايب

ساترَ الحال في بيوت اليتامى
السمْحَ إذا باع
صائنَ سمعة الحلبيّ في المسواق
وكذلك يعرف
سريرة المازح المنكّت من الزنّار وتحت

ويعرف
الفارك إبهامه على السبّابّة كلّما سألوه عن صفقة أو زواج
المغيّر صبغة الشعر
الرابحَ في القمار
المهمومَ
التاركَ حجّته على حدود الأردن
اللمّاز
الغمّاز
المحتال على الزكاة
المزواجَ
المغتسل للتوّ
القابل على مضض أن يستفتح الجار بعده
المصلّي بلا وضوء
المنافقَ في لحية أو مسبحة

لا يعرفون كيف جاء؟
هل كافأ شهبندر التجّار أباه الحلّاق
لاكتشافه لقاحا ضدّ الجدريّ
وشفى ابنه فأعطاه لقمةَ عيشه من تزاحم الأقدام؟
أم لأنه كما تشتمه المكيّسة في حمّام النساء: «إجير المباحس، قوّاد
الظاظات، شيّال إبريق الوضوء لزوجة الفايظجي؟»

أم عيّنته الأوقاف، من وجهه المندار، دليلًا على القِبلة
وبأذنه المرهفة قادر أن يميّز بين الناصريّة والشيوعيّة في الأفكار الواصلة من وراء السور
لا أحد يعرف

والآن لا يعرف أحد
إذا ما كان قد مات
أو نزح، جَنوبًا، إلى كروم الفستق
أو لجأ إلى عنتاب
لكنّه في آخر فيديو مسرّب
يُشاهد دربٌ متقطّع من قناني «أبو فاس» فوق بلاط مقفّع
وآخرُ حنجور كان على حافّة خندق القلعة
عالقا بمسمارين من رباط البسطة
رأسه بلا سدادة
وفي قعره المكسور نقطةٌ بنّية تلمع في الشمس

بومة أم القويق

يحكون الآن في حلب القديمة
عن بومةٍ
لم يسمعوا بها إلّا في الحكايا
وبعضٍ من فقراتٍ في علم الأحياء
عن الطّيور الجواثم في بلاد الشام
لكنّها لا تحطّ في الخرائب
وليس لها نعيب

وفي المصابيح المكسورةِ تنام
عيناها، كما كلّ العيون الآن
لا يرفّ لهما جفن
ساهمتان في السماء
عسليتان
بكحلٍ شفيف
ونظراتٍ منكسرة، كما لو أنّها في عتاب
لم يرها أحدٌ تتململ
أو تطير كمذعورة
حين تنهمر القذائف

وحين تساءلت الحارات
من أين للطير كلّ هذي الجسارة؟
ومن أين تقتات؟
فليس حواليها زاد
سوى فتات البارود
والدّخان
قال بعض النسوة :
إنّ عجوزًا قضى عمره في التّين
بشّرنا

قال: هي أم القويق
أم السّهر
وليست من البواشق
فلا تقتات على لحم
أو تُجفل في العشّ المجاور عصفورًا
وعلى المرضعات أن ينمن قريراتٍ

فهي لا تواجه طفلًا وجهًا لوجه
ولكنّها حين ترابض في مكانٍ ما
فثمّة إذن، ثعالب في الجوار
يقول الصبية في الملجأ
إن أستاذًا في الثلاثين

قرأ لهم قصّةً عن بومٍ
يقضّ مضجع الغرباء
عندما يسلبون الناس بيوتهم
يصطاد فراشاتِ مخمل الدم في أرائكهم
ويقضم خيطان الستائر
ولأنّه خفيف الطيران
لا يرونه
وليس بوسعها الأضواء الكشّافة
أن تضع عينها بعينه
يضع لهم في أقفال الأبواب
بعضًا من ريشه

فلا تعود تنغلق على نعيب يحزّ بقحف الرأس
فلا ينامون
يسلح برازًا صمغيّا
مثلما على زناد البنادق
في سيقان جزماتهم
وفي الليل، في عزّ الليل، يردّد كصدى، وهو طير الصّدى، صرير عظام الموتى
في المقابر القريبة
فيربطون زوجاتهم إلى أرجِل الأسرّة كالمجذوبات

يحكون في حلب الآن
إن بومًا أسرابًا على أسلاك الكهرباء

«تويجر»

هكذا كان لقبه الدّارج في كلّ مكان
وكما في إيلاف قريش
له رحلتان
تنزل المطرةُ الأولى
فيدخل سوق البلدة
بمعاطفَ صوفٍ وكستناء وتمر
بجزمات، وسراويل كنّ كنزات

هو من كان يخيط فتحة ياقاتها؛ فتصير الأكمام سيقانا
بشالات فرو رخيص
وأكياس من قضامة مالحة
وقوالبَ لتحويل العجين
إلى دوائر تطفو على سطح طنجرة من قطر
وفي جيبيه، بالمجان، علب دواء الرشح
ومواعيد سينما حلب في عطلة الربيع
يقايض قطّافات الزيتون
ذراعُ قماش مخملٍ مقابل حرج
والصبيان «دستةُ» أوتار بزق وقلفون
وعلبة صمغ وشريط كاسيت فارغ
مقابل إبريق زيت

أما أرباب «الفعّالة» فكان يتناسى كلّ عام
دفاتر «اليانصيب» والعناوين الجديدة للقمار
هذا خامس شتاء
لم تؤجر فيه «أم شيرو» علّيتها
وكلّما طلبها أحد في الأربعينية
قالت: محجوزة حتى أموت
تنزل الحصّادة
فتنهض بلون سنابل الجزيرة
حبالُ القنّب
على الحائط الغربي للجامع الكبير

لتُعلَّق عليها بأصابع رشيقة
قمصان وخفّافات وشالات حرير
ومن جيبه، بالمجان، تنهمر أقلام الحبر الناشف
وطوابع البريد، وبطاقات المسرح الجوال
ولوائح بأسماء تجار السمون والجبن
وعناوين البيوت الموهوبة لطلاب الجامعات
هذا سادس موسم
لم تحرق «عوّاش» حفنةً من فريكة الحنطة
تقول: لا أحد بعده
يعرف طعمَها النادر

يقول تاجر قماش :
انكسر لسوق الزهراوي بغلال بازارات؛ فحجز عليه
تقول صاحبة «النوفتيه» المخبرة :
شاهده الكلّ

وهو يضع، على الرصيف قدّام بيته، بضائعه ويهتف :
«خذ أيّها العاري
والحساب يوم الحساب»
وهو يلعن أسماء لم نسمع بها من قبل

يقول حموه المختار الأوّل لابنته :
الكلام بيننا يا بنت !
الفقر لا يعتدي على أحد
ما له والسياسة؟
حتى يوزّع لقّاحات
عليها علمُ ثورة «الأوباش»

يقول شرطي البلدية المنشقُّ :
كنت أعرف أنه لن يأتي مرّة أخرى
ولو لم يصرّح لي
فقد أوصته زوجةُ مدير الناحية
بأن يجلب لها، البازارَ القادم، عجينة من معقود القرنفل لنتف الشعر بلا وجع

يقول الجيران :
رأيناه بعيوننا هذه
كيف كسر، قرب الحنفية، بحجر، ساقَه
وبلا صراخ أومى لأولاده أن يحملوه
وسمعناه بآذاننا هذه
كيف كان يغني :
«ع المولیه مولي الهوى
عيني يا مواليا

ضرب الخناجر ولا
حكم الندل فيا»

الخريف في حلب إذاً

حلب، النكهة الملموسة
كشامةٍ في قبّة الخدّ، لواحدة توحّمت على حزِّ شمسٍ قبل الحبل
تسحب آب من تحت آباط الشرفات
وتلقيه على سفح الرمان
ليهبط بلا ندم أو خطيئة
المطارحُ الموغلة في العنب
الشوارعُ التي تحبّ أن تعبرها وحيداً

وتلك التي منذ آخر انتظار فاشل، حردت عنها خطاك
الغروبُ المحصّن بالدمع
أيلولُ المتلعثم في شفةِ الفستق الحلبيّ
آثارُ تعذيب المشمش واضحةٌ على جلد قمر الدين
الشرشفُ المبقّع برغوة البيرة والسّاحل عن آخر طاولة في مطعم العندليب
البردُ الذي سيحتشد بعد قليل
قبضةُ الملبن علي تلابيب الجّوز
الحضورُ الطاغي للذين ماتوا
الظلالُ الرخوة على مظلات عربات الذرة
القططُ الكسيحة قدّام دكاكين الشواء

بهجةُ الموسم في عيون مصوّرِيْ الحديقة العامة

أصابعي الراجفةُ وهي تنتظر مخاض الحبر
النهارُ الذي صار يقصر على رصيف بيّاعة الريحان
قرونُ الفليلفلة الحمراء، وهي تلتصق على بعضها في القلائد، خوفَ مطرٍ مبكّر
الكآبةُ في القمصان نصفِ الكمّ في الجّامات
كسراتُ مطمورات الفخّار على باب مكتبات القرطاسية بـ «باب النّصر»
الخوفُ من زيادة الراتب في الجيوب المقلوبة على قفاها كآذان الأرانب

النسماتُ التي تنبئ بشتاءٍ قاس
الأوكازيونات من صالات الأعراس وحتى صنادل القشّ
الغيمُ الغربيّ المكشّر عن برق لا يرضى بغير الطوفان
وثمة هذا الوخز في رئتي
يذكّرني كلّما نسيت
بأن هذه هي السنة السّابعة لسجن أصحابي في الحياة الجامعية
الخريف في حلب إذا.

الطّاهر

لم يكن الطّاهر، بيّاع الحليب حارةً فحارةً:
من «ظهر القناية» وحتى طلعة العرقوب
يعرف ديونَه على دُور الأيتام
ولا على اللواتي جفّ فيهن الضّرع
ولكنّه يعرف أن الولادات تقلّ
ويقلّ البيعُ والثقة والحسّادُ أيضًا

فقد صار لهم سوقٌ تقف فيه علبُ «النيدو»
وليس لهذه السّطول الرابضة كأنّما على قلبه
السّطول التي سماها باسم أولاده

وأكل «الألمنيوم» فيها أصابَعه
ودلّل ذوات الليتر
كما لو كنّ من رضيعات العائلة
السّطول التي فصّل لها ثيابًا من القنّب
السّطول التي يعرف ميلادَ كلّ واحدة فيها
السّطول التي تعتق وتظلّ ناصعة كقميصه

ولكنّه لم يكن ليحسب
أنها سوف تندلق في «نزلة ميسلون»
على دمه الساخن
ويجريان معًا، نزولًا، حتى أربعة المفارق
فلا تعرف حمّالة الجند
أهذا الذي يتناثر عن العجلات فوق الأرصفة
دمٌ أم حليب؟

كراج الانطلاق

ماذا تريدون من كراج انطلاق قديم؟
اتركوا هذا الكسيح
يمرّ بأصابعه على أطلال الدواليب ويحظى بوهْم السفر
اتركوه يلملم كلّ صباح ما يهرّ من حروف المدن في اللافتات المكسورة
ويجمعها على هامش باصاتٍ لن تصل
اتركوا هذا المتعب كأب
لا يعرف من أبنائه غيرَ الأسماء
اتركوه لا تقطعوا غفوه النادر بشخير المدافع

لن تنفع كمتاريس عظامُه الهشّة
ولن يستر ظهرَه المفتوحَ على الجهات خداعُ أحد
اتركوه
فربّما نحتاج لشاهد على «أنّ كلّ الدروب إنّما تمرّ من حلب»

جريانة في حلب

واحدٌ فقط
من يعرف القصّة
واحدٌ كان شاهَدها للمرّة الثانية
واحدٌ شاهَد لفّاحته الصّوف
تحيط بعنق لم يعد ذلك الخافق الأزرق
بغلظ إصبعين من كفّه التي احتفنت رأسها
وهو يضعها بين يدي راقصة «ملهى الفلك»
كأمانة أبدية

واحدٌ شاهد لأوّل مرّة عينين شهلاوين
وشفتين ليستا زرقاوين كما في صباح بعيد
تتكلمان بعربية فصحى :
«لم آت أفتش عن أبي وأمي
بل جئت أساعد بضماد جرح لتراب
كان مسقطا لرأسي وإن على رصيف معتم
وخرقة بالية لا تتسع لجسد لقيطة
جئت أجبر حديد الشرفة
التي اغتسل بدمع أمي التي ليست أمي
وهي تصغي إليك كلّ يوم
وأنت تؤذن للفجر

في جامع «الملّا خاني»

لترى الذي ليس أبي يلقي في طريقك
هذه التي تراها الآن قدامك طبيبة
واحد فقط يعرف
أن طبيبة تركت مدرستها ومستوصفًا صغيرًا في شمال نيجيريا
وحولت قبوَ داره، في حلب، لمشفى

وأنها من حلب
خانةُ ميلادها حيث لم يولد أحد
هنا في «بستان كليب»
وأن التي لم تمت بنتَ ساعات
في مهاد من البرد
ماتت في الثلاثين بصاروخ
وأنها «مريم الحلبية» التي سماها
وهو يناولها لحضن «رقّاصة» تائبة
ظلت تراسله حتى 8 آذار 2012

من حارتنا

[1]

نجلاء !
ستعودين إلى المدرسة، فأنت بسبعة أرواح
لن تموتي من خنجر مسموم في الرقبة أومن رصاصة قنّاص في القدم
أو من تمزّق سرّة وأنت مشبوحة في ليل زنزانة باردة

وستكتبين في أعلى اللّوح أضدادك الجديدة :

ضدّ زواج الشفقة
ضدّ أن تلبس المرأة زيّ الشوحة
ضدّ المهور ما لم تكن محو امّية عشرة
ضدّ البارود حتّى في مقالع الحجر
فسوّي ما تبقى عليك من لحم
ومرّي من هنا، من مفرق العشب فقد جهّز لك أمشاطًا ومداسات

[2]

أستاذنا يا اسماعيل «أبو العيش»
عد إلى موقف الباص
ارفع لافتتك المعهودة «يحيا الباذنجان»
فلن يجرّك أحد من طوق المفاتيح الذي بعنقك
وسوف يصدّق، حين يفتله ولا تبكي، يفتله أقوى فلا تستنجد
أنّك من حرب الـ 73 صرت درويشًا على البركة

[3]

افتح دكّانك معلّم هاروت !
أنقذ هذه الدرّاجات التي مالت والتجأت إليك
عُدْ نقطة علّام في الحي
فلن نعود نشبّه الوجوه المرعوبة بكحل بدلتك الأبديّ
اخترع، إن أردت درّاجة بلا عجلات
فلن يمزّقوا بطنك بالمنفاخ،لأنك اخترعتها بعجلة واحدة
افتح شباكك، أسمعنا «آرام خشادوريان»

وخفّف عن أنف أمّك دوخة السرسريون والبسطرمة والعرق

[4]

أمّ فاتح يا داية كلّ نساء الحيّ !
اصعدي درجات قبوك العشرين
ضعي على الشرقيّ أمام البناية كرسيّك
وتباهي بأنّك، في التسعين، وتضمّين الإبرة
ويوما بعد يوم، إذ لن يشلّك خوف الكبيرات من الموت
ستجفّف الشمس حنجرتك المنخورة بالصمت والرّبو
ويعود إليك صوتُك الحلو في زغاريد البشارة

[5]

ويا زعلان !
اهبط بعرانيس الذرة من مشتلك فوق السطح
واذهب لتشويها من جديد عند زاوية الحديقة العامّة
فلن تجد هناك برّاكة الأمن العسكري
ولن يقلب أحدٌ على رأسك منقل الجمر
لأنّك لا تريد أن تخبر عن أحد

[6]

أمّا أنت يا بنتي !
فاخرجي من وراء الباب
من متى تخافين من أفلام الكرتون؟
ستعود بنات الخالة، فقد فكّوا الخيام، ولمّوا غسيلهم عن الشوك

سيعودون عند تمام البدر
ماشين النهرَ النهر

وقومي لنشتري خراف البسكويت
وحذاءً زهريًا
وكيس سكاكر
ودفتر رسم جديد

الجنرال جورج الحفيان

لم أعرفه من اسمه الثلاثيّ في النعوة
فاسمه عند كلّ روّاد المقهى
«الجنرال جورج الحفيان»
بل من عينيه اللّتين ترسمان عقدة غاضب في الجبين
وفي الأفق زورة باشق مأسور
ولأوّل مرّة، أرى عنقه الطويل
لا يحرّك جوزة الحلقوم

ولأوّل مرّة تغيب الأكتاف الناحلة
تحت قبّتي جاكيت أسود
فما عادت تسحل عنهما الرّتب التي يرفعها بنفسه فوق شرائط ملوّنة
تملأ صدره المعتزّ كنياشين
لا تبدو في السترة العسكريّة الأبديّة
غير قلائد لسدادات قناني الكازوز
لا أعرف كيف تركت الصّورة

ونزلت بعينيّ إلى ساقين، يقول التعليق الأوّل: «إنّهما طارتا إلى نهاية خطّ رجعته من جولته اليوميّة في الشوارع، فقد جاءت القذيفة بين رجليه وهو يكاد ينزل درج قبوه»

لم أر قدميه الحافيتين
تعبران برشاقة الشارع المقابل
وتحطّان عند كشك الصحف
وهو ينسل، دون استئذان، جريدة «الجماهير»، يطويها على شكل بسطار
ويدخل باب المقهى كزبون لن يقعد
لم يقعد أبداً
من منتصف السبعينيّات، كما يروي النادل
لم أر قدميه الحافيتين
لأعرف شكلهما وهما تفتّشان عن ضابط جنّ بتدمر،
لم يمت في حرب ذهب، بهما، إليها
ومات بحرب جاءته هي إلى عقر داره

لم أر قدميه
تغرسان أصابعهما في بلاط المقهى كالأوتاد وهو يلقي خطبته العصماء
كلّ يوم بعد أذان الظهر :
«اسمعوا وعوا
والله شربت أنا من ماء بحيرة طبريّا
تعالوا شمّوا في أصابع كفيّ
رائحة تراب الغور
ورأيت بعينيّ هاتين بريق الشمس
على سطح البحر الميّت
لقد مات من الصّبر يا سادة

وهنا في رئتيّ
مازالت رائحة القدس
حملتها النسمات الغربيّة في الجبهة
والله فعلها عبد النّاصر
علّمها كلّ الرؤساء؛ أن اخترعوا حرباً أيّة حرب يشتدّ أزر الكرسيّ
خسرنا المعركة وربحنا العزم
مات الجنْد وعاشت الوحدة

قولوا: مجنون
مجنون يحكي أفضل من عقلاء بكُم
لا تصفّقوا
اتركوا هذي الأيدي لشغل
أنا لا أشحذ منكم سيجارة
أو حقّ بطحة عرق أو قرصين فلافلَ
أنا أشحذ فيكم
وأنفّذ ما أوصاني صديقي عبدالله
حين استشهد بين هاتين الذراعين
قوموا من تحت الصّورة قوموا
اخرجوا من هذا المقهى الضيّق كجحر الضبّ
رتلاً ترادفْ
أسبلْ
وراء درْ
رملاً سرْ»

لم يفطن لهم أحد

أبو الحكم

أبو الحكم مات
كان
لم يختلف الناس كثيرًا
حول اسمه
لقب أم كنية؟
كان
ولم يخطر ببالهم، وهو العازب الدّهري،
أن له غير أبنائهم ولدًا

في نعاس الضحى، وهو في السوق، على كرسيّه الخيزران
يسند ذقنه إلى ممسك عكازه
«لا يجب للعنق
أن تطامن، ولو في الكبو، كالهداهد»
مات أبو الحكم
ولم يعد الشباب من غرباتهم
كي يمنح أكثرهم حنينًا، إبريقا من الفضّة
ولا أعراس كي تتبارى الصبايا
بالبحّة البلدية للعتابا
فتحظى أحلاهن صوتًا بطوق العقيق

ومنذ آخر حصاد
لم يحكم لسباق الأولاد يركبون عيدان المكنس كأحصنة
ويربح أوّلُهم سفطًا من الراحة المعطرة

مات أبو الحكم
وانفضّت حصى المنقلة
تحت الكراسي المقلوبة على بُرك الدم
فلم يربح أكثرهم صبرًا
شاهدة قبر من الرخام
منحوتا اسمه بالكوفي عليها

مات
كان
لا يكبر
وينام أقل من ديك
ليصحو على رائحة الأرض
كعاشق أبدي يسقي شجر المقبرة
ويكنس بعروق يديه
القبور المعدّة لموت مفاجئ
وكواحدٍ لا يطيق العزلة
فما من زحام إلا وتلمع صلعتُه العريقة فيه

لم يمت وحيدًا
فمعه الروضةُ بكامل أراجيحها
وكذلك صناديق الخضرة
التي وهبت ظهرها لوحًا للحساب
وعدّة السباق
والهدايا
ووعده بعلبة تلوين
إذا كتب الطفل بيتين من الشعر بلا خطأ
وتلا عن ظهر قلب آية الكرسي

أو ما تيسر من سورة مريم

مات
وما كان يعرف
أنه، وهو الّلحاد الوحيد، سيكون بلا قبر

الأخت الكبرى

كأنّما ليست هي
لم يكن لها ما يعطّل ابتسامتها النادرة
لا هذه الرقّة في الخدّ الأيسر
ولا خلوّ فمها الخاتميّ من الضواحك
ولا تهدّل جفنين مثخنين تحت الكدمات الزرق
لم يكن لها أن توجز في حديث الألفة
فتكتفي باللازم من الكلمات

فيبدو في حوارها تجفافُ المجامل
أو صمتُ غيرِ الآبه بوجع الناس
فغابت عن صباحات قهوتها لمّةُ النسوان
وغاب أن تزيل عن صدورهن همّ الغيابات وشظف العيش
بنكاتها المعهودة عن ليالي الدخلة
وعمّا يفعله السمك المشويّ بأوصال الرجال
الكلّ صار يصدّق أن للمرأة دمعاتها الجوفية
فتنفد عن بكاء طويل أو عن فزع لا يطاق فتذبل عينها
وإلا لماذا تظلّ مشدوهة هذي الحنون بلا عبرة قدّام الفواجع؟
وهي التي كانت تنوح إذا انجرحت إصبع أو بكى طفل من لقاح

لم تكن لتنهض على أربع
وهي التي ظلّت تتباهى بأمّ تمسك خطّين في حصاد العدس وتحظى بالسبق
وبأبٍ مات وهو يعلّق في أعلى التينة فانوس السهرات بلا سلّم
كأنما ليست هي التي ظلت تنقّ على أولادها «أن ارفعوا رؤوسكم وأنتم تمشون
خوف حدبة في الظهر
أو تجري لكم ألقاب الذلّة على ألسنة العكاريت»

لم ننتظر طويلًا لنعرف
أن ما طوى قامتها الباسقة فتوق في فقرات العصعص
فقد كانوا يشدّونها في الزنزانة كي تشقّ بأيديهم نصفين
وأن ارتجافها وهي تحاول ألا تستند على أحد
ليس لمن يقوم لتوّه من شلل
ولم يكن للزهايمر أن يتجرأ على أعصاب امرأة كانت تصطاد الواويّات
وتطعم ذئبة حبلى فتات لحمها
ولقّبتها الديرة «أخت الرجال»
فقد أوصلها عنادها لأن تُحرق رموشها بلهب الشّمع
ثم تسفّ رمادها بلسان ناشف

لم ننتظر طويلا لنعرف
أنها لن تنتظر فرحا يرتّب بهاءها من جديد
وأنها، إنّما كانت تصرّ على قليل من الكلمات
حتى لا يقال «خرس الحق، فقد مات الشاهد»
وأنها لن تطلب، وهي تحتضر، إلا ممشاها الأبديّ بين التنّور وخلايا النحل
وأنها لم تكن أكثر من سلّة جراح تلوح في نعش

ابن العشب

أنا لم أر ملامح وجوههم يا بنيّ !
لأشبّهك بأبيك
لا أذكر غير مقلٍ جاحظة على الأكتاف
وأنوف كمناقير البط، وقمصان معقودة إلى أفواههم كلجام البغال
لم أسمع لهم لكنة، فقد كانت تحكّ عظام ظهري حصى الأرض
إنك لا تشبه إلّا أنت

سنبقى هنا يا بنيّ !
آكل من ورق الصفصاف وأرضعك حليب الأعالي
ألفّك بعشب من جيلك
أدق لك بحجرين قطعت بهما حبل سرّتك؛ كي لا تسمع عواء الوحش، وتتعوّد أذناك على أغنياتي وأنا أهدهدك على سرير رجليّ
سننتظر حتّى تنتهي الحرب، وأسمّيك «ابن العشب»، لتحظى من نصيبك فيه من البلاد
سأقول: إنّه لقيط من سجن النساء ماتت أمّه وهي تعضّ على شحمة أذني
وسوف لن يلحظوا وراء الدمع أنّنا شبيهان في الدهشة وسواد العينين

سنبقى ههنا؛
كي لا أموت قبل أن أراك زوجا لامرأة لا يشدّك إلى نهديها غير الحبّ
وأراك تقلّد أباك الذي ليس أباك سوى أنه ما زال يأتيني في الحلم على فرس أزرق
يرفع بأصابعه الرشيقة رأسي عاليا، ويطيّرك إلى أعلى
ويهمس بين رأسي ورأسك «للفكرة أيضا أولاد»، ويمضي في البعيد كشهاب

سنبقى هنا يا بنيّ!
حتى تنسى ذاكرتك الغضّة دروب أصابعك على جراحي وأنت تكتب بأنفك على
رقبتي سؤالا لم أجبك عليه
حتّى أفصّل لك من ظلّ الحور ما يقيك من الرصاص
حتّى لا تشتمّ غير نكهة الأرض
حتى ينتهي القزّ من كنزة سألقيها على كتفيّ
وأعيد غسلك بفضة النبع
ونهبط معًا هذا الجبل الحنون بسلام

شيخ الحفارين على الخشب

الوحيد الذي لم ينزح
وما فكّر مرّةً أن يتزحزح
قيد نقشة عن مسقط قلبه
وكلما كانت تقلّ الضيعة
يضيق مثواه حتى صار في الآخر
هنا تحت هذا السقف المائل لمطلع الدرج
وينتهز غياب الطيّارة بين قصفين

ليفتش في الأنقاض عن إزميل أسباني
كانت أهدته إياه معجَبةٌ في معرضه الأخير
عن تلاقح عروق الخشب في مدريد
«ولماذا أرحل؟
فلم يبق شيء لأحزن عليه
وصار الخشب شواهد للقبور

يكتب الناس على التالف منه
برائب الكلس
أسماء موتاهم
وهرّ عن خزائن مخلّعة وعن أبواب منتفخة كالجثث توقيعي
أنا ملك الحفارين على الخشب»

تغيب الشمس
فيكتف على بطن ضامرة ساعدَيْه
وتجمد الأصابع في يديه اللتين كانتا على مر المجاعات مبسوطتين
مثلما للجيران للطير
وحين تطلع لا يعرف من أين
يفك عن عينيه خيطان الرّمد اليابس
ولا يلتفت إذا طالما لن يلقي تحية الصباح
سوى على هرّة تنام بين ساقَيْه
ومع أنه يعرف أن لم يبق فيه حتى الرائحة

يفتح من جديد كيس التبغ
ويشتم بصمت زمنا فاجأ رئتيه بهذا السعال الجاف كمن تنشق غبرة قبره
هو لم يقل لأحد عن وصّيته في الدفن
ولكن رشقة بارودٍ حارق نفّذتها
رمادًا في صرّة ملقاة على مهل تحت تينة
كان قد نقش على جذعها أوّل حرفين من اســـمه، نون بلا نقطة وحاء تلوي ذيلها حول الجذع حتى يلامس في الغصن الاوّل، محفر حبل أرجوحته .

أمّ الكلّ

ظلّت أربعين عامًا
تقلّب حظّها في علبة «كبريت الفرس»
ولم يخطر ببالها
أنّ القصب المجدول في الحصيرة
إنّما يقلّد أصابع النسّاجة فتجعّد
ظلّت تنذلّ لـ «بطاريات البرق» القزمة كبيّور
كي تدرّب أنوثتها في أثير إذاعة دمشق
وهي ترسل آهات أمّ كلثوم بعد منتصف اللّيل

ولم يخطر ببالها
أنّها ستصبح أرملة بلا وحم من أوّل حرب
ظلّت لا ترفع رأسها إلّا حين تمرّ في السماء أسراب الإوزّ
فربّما صار المنام أقضى وحملتها إلى مدن الحنين
لم يخطر ببالها
أنّ الإوزّ أوّل المفجوعين بالرصاص
يشتمّ رائحة البارود من أقاصي الأرض
فلن تراه، وعليها أن تعود للياسمين من جديد
وتتابع محو أمّيته على طبق القشّ
ظلّت ما تبنّت ولدا، فكلّهم رضعوا حبّات الرّاحة من بين أصابعها

وعلى حسابها كان حلق البنات وتكاليف ختان الصبيان
لم يخطر ببالها
أنّ حربًا أخرى، ستأكل عكّازها وما تبقّى من بصر
وأنّه، سيأتي ذلك اليوم
تتلفّت ولا تجد حواليها حتّى «ظلّ حائط»

رزوق

آخر مرّة
شوهد فيها
كان رزوق «البياع الجوال»
يشكو أن البغل قد هرم
وينسى أنه كان يحتاج لاثنين
كي ينزل عنه
ليقايض بفردتي ميزانه التنك
الطناجر العتيقة بأحجار البيلون

وتنقل عنه نجّارة الأمشاط الخشب
أنه كلّ أربعاء
سوف يسامح ميّتاً ما بدَيْن
ولن يبعث خبرًا وراء النازحات
وكان يقول: «الشغل خفّ
وصرت كلّما جهّزت حملي
صاحوا على «القبضات»: غارة
وهذه ثالث جحشة أشتريها
فلم يعد في سوق الحمير بغال

يقولون: لم تعد بهيمة
وصارت تشتغل بنقل البواريد
وها مرت أربعاءات وأربعاءات
لم يسأل أحدٌ عن رزوق

لم ينعه أحد
ولم يسجّل الناشطون
أن شروالا كحليّا، يعرفه ـ كزيّ وحيد لرزوق
عالقًا ببعض دكّته على عرقوب لجحش منفوخٍ بلا رأس قرب المفرق

لكن نحيب زوجتة البكماء
بعد كلّ صلاة فجر
وهي تحفر بأظفارها على حيطان المقبرة
ر.ز.و.ق
خلّانا جميعًا نعرف
أن الذي علق في جنزير الدبّابة
وتعطّلت في درب الشوك
إنما هو أشلاء رزوق

الثكلى

هي، من وحمها فيه على فلقة رمان،
رأت في المنام المكرر أن شيئا ضاع منها
لم تقتنع بكل التفاسير التي تسحبه من حضنها إلى عشب الوادي
محمولًا على كرسيّ من بتلات الورد
أو هي لن تفطن إلا لوخزة تحت ثديها الأيسر توقظها في أوّل النوم، عرقانة،
وتنز شفتها السفلى نقاطًا من دمٍ مُرّ

هي، من وحمها فيه، تخاف من ناس
يأتون في الليل على أحصنة من غبار
ويخطفون الأولاد الوحيدين لأمهاتهم

إلى حرب، كلّ جنودها منهم
فتشدّ بأصابعها الراجفة عليه في البطن
وتبكي كما لو أنّه مات

هي لن تصدق أنها لن ترى يوما فلقة الرمان على جوزة رقبته
كما أنها لن تصدق أنه هو هذا المعفّر ببطانية كالحة
هي لن تصدّق أيضًا
أن القفّة التي من قشور الزان
التي وسعته وهو يختبئ منها في زاوية المطبخ
سوف تتسع لأغراضه وهي تحملها على قميصه المعصوب فوق الرأس
وأنها ستعبر هذه الطريق الطويلة في الصحراء
على حدو ضحكاته في أوّل المشي

بنت شهرين

نامت البنت
البنت الّتي هي أحلى
في الصورة منها في عين أمّها
مطبقة أجفانها بارتخاء
كواثقة من أنّ سبّابة
ما تزال تناغي شفتها السّفلى
كأنّما ما مرّ بها الموت منذ قليل

وكأنّما هذه العشبات الغضّة في الرّكام
ليست ضحكاتها الفالتة من اللّهب

وكأنّما هذه الغيمة التي تلقي بظلّها
على مهادها
ليست صورة طبق الأصل
عن ثوب عروس لصغيرة

كأنّما لا موت هنا
فهذي البشاشة ليست من تلك التي نسقطها نحن بالعادة
على وجوه الصغيرات
فهي تتّسع حتّى لا نكاد نرى
أنّها تحاول أن تسوّي عنقاً مائلاً
وترسم في شرود قليل
أنّ بنتاً تتعلّم الحبو بين شواهد القبور

معنا في المخيم

مع أنها أصغر من جدة
سمّيناها أمّ الأحفاد
يتبعونها في الممرات كالصيصان
يجوعون معًا
ويمرضون معًا
كما لو أنهم توائم
ثلاثة صبيان وبنت
واللعبة الوحيدة لهم

الحجْل في المربعات المرسومة على الأرض
لم يخطر ببال أحد أنهم يتامى

ولولا لقاح الحصبة في المستوصف البعيد
لكانوا مجرّد أشلاء في ركام البيت
وأنهم إنما تجايلوا بالصدفة
فصاروا أولاد مذبحة واحدة
وأنهم فطموا عنوة عن سبايا
لا يذكرون منهن غير أنين حادّ وبعيد
لا يقطعه إلا قليلا شخير الجدة المنهكة
لم يخطر ببال أحد
أنها لا تملك لهم أوراقًا غير جلاء المدرسة
وأن لا شيء سوف يثبت نسبهم إليها
إلا الشامات المشتركة
تحت الجفن الأيسر

بيّاع الورد

لم ينزح بعيداً عن المشتل بيّاع الورد
مسافة سبع تنكات من تلك التي للحبق الناضج
ويموت تحت أشلاء العربة
لقد مرّت واضحةً في ناظور القنّاص
الخطواتُ الأولى
ساقُ الجزمة المرتّق بوحلٍ طريّ
الجيبُ المنفوخ بحصىً ضدّ النسيان
الثقبُ الأخير من القشاط المعقود على بطنٍ ضامرة

الكتفُ المهزوزة للعرس
الدمُ في عروق الرقبة

الشّامةُ النافرة في الحنجرة كنيشان
الأنفُ المرفوعة لشمّام
الأجفانُ المطبقة على الصّورة الأخيرة لوجهٍ يطلّ من الشبّاك
ومرّت كذلك واضحةً في ناظور القنّاص
اظافرُ الدولابين النابشة عن آخر المسافة في الدرب
العشبُ الطالع من «لا تسرع يا بابا» محفورةً على مؤخّرة العربة

عقدةُ الرّسن في المسمار العنيد
حبّةُ الشعير الهاربة إلى شقٍّ في كيس التراب الأحمر
بقعُ الزيت الرّاشحة من قماش الزوّادة
قربةُ الفخّار، قامتها المربوعة، قميصها القنّب، شفتها المتهدّلة من العطش
الخصورُ الرشيقة للزنبق
الحوافُ التي لم تصدأ في سطول الفلّ
وحتّى لا ينزح بعيدًا بيّاع الورد
كانت تكفي طلقةٌ واحدة
هنا في عين الحاسد الزرقاء مدلّاة من طوق خرز
فوق جبهة البغل

المعلمة

هل كانت تعرف أنها ستموت؟
حتى تكتب «فاطمة اسليم» في دفتر التحضير
طالما أن المدرسة انهدمت
فإنها ستخالس الحرب وتكتب مذكرات صباح واحدٍ من يوم واحد
وأنها رجعت لعادتها قبل الحرب
توقظ بناتها برائحة البن
ففيها، كما كانت تصرّ، بخور يطرد نكد البيت

تفرط لحمامة الشبّاك من سنابلها على صحن من الفخّار حفنة قمح
قبل أن تأخذ رأيها في حكمة اليوم
غير أنها هذه المرة من الأدب الجاهلي
«وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم»
وتمسح بـ «بذقونة» مهد إنانا
ألبوم جلاءات تلاميذها الشهداء
تتأكد أنه مازال مرتبًا حسب وسيلة الموت
وتقرأ في رأس الفهرس «ليس في الطفولة كنى ولا أعمار»

تتأكد أن هداياها كما تركتها
الخابية
طبق القش
حبات العقيق الثلاث
مزهريات الودع
والأعمال الكاملة لمحمود درويش
وقندورة العرس
تحصيها ببطء
وتعاود ببطء أيضا

تمرّ بلوحة النّاي المعلّقة في صدر الصالون
وتهمس «يا حنون سمعنا»
ولا تكتب على غبرة المرآة سوى 18- 11 - 2015
هل كانت تعرف أنها ستموت؟
حتى كتبت في تعليقها الأخير على قصف سراقب
كما السنابل نموت
كما السنابل سنحيا

جمال

أنا الذي أعرف
لماذا، أنت الوحيد منا، بقيت هناك؟
لا لأنك ورثت العناد
عن خالٍ مات أعزب في السبعين
فرّ من قطار السفر برلك؛ ليخسر عينًا وساقًا ويربح راحة ضميره في قبو صغير
ولا لتحرس دارًا مهدومةً أو أملاكًا مشطوبة
أو شجرة نسب تمدّ جذورها في جبّانة كبيرة

فأنت لم تعترف يومًا بما بعد جدّ جدّك
تقول: «في ذلك الوقت دخل الغزاة»
لا لتبدل الخلاخيل في أرجل حمام نافق
أو تنفض عن سور من الريحان؛ شقق تنكاته رجع القصف، غبرة البارود
لا لتقاوم، فلست الأكبر ولا الأصغر ولا الأشد
وكلنا يعرف ماذا كنت تصنع من شرائط الفتاش و «فشكات الطابو؟»
أما كنت تحشوها بجحر فأر أو عش الدبابير
أو تجبلها بالزبدة والسكر
لتهشّم أحشاء جُرذ جنّن الحارة؟

وكلّنا يعرف من أولادك
أنه لم يدخل بيتك يومًا مسدس عيد خلبي أو فخ أو صنارة أو مقلاع
لا لتصون سمعة العائلة
ويقول الحاظي والماضي :
ها هم من صرعونا بالثورات عبر التاريخ

تركوا مكتباتهم في الخزائن
وتبعثروا في آخر ما عمّر الله
لا لتفتت، بصورة أو مكالمة يقطعها بكاؤك، حصاة النسيان الواقفة في مجرى الدمع

لا لتستلم عنّا حصتنا من الصبح حتى نرجع
ومتأخّرًا عرفت: أنك مازلت تصرّ، وبعنادٍ أكبر، على قناعة لم يصلها قبلك أحد
«للاسم على صاحبه حق
وللوطن من كليهما نصيب
وما هذه ʼفلان الفلانيʼ إلا واحدة
مما تركه الطغاة في أقلام الخائفين»

سلام حلوم

شاعر سوري

ولد في سراقب 1963 درس في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة حلب، وحصـــل منها على دبلوم الدراســـات الأدبية. درّس اللغة العربية في ثانويات إدلب وحلب. من مؤســـسي ملتقى الأدباء الشـباب في جامعة حلب ومؤســس ملتقى حلب لقصيدة النثر.

صدر له

مديح شاسع للقش (1991) شعر (دار الينابيع: دمشق)
كانات الرجل (1999) شعر (دار عبد المنعم ناشرون: حلب)
الحائط (2006) شعر (دار الينابيع: دمشق)
يسمونه عندنا (2009) شعر (وزارة الثقافة السورية: دمشق)
كما غدا (2010) شعر (كوبيا لخدمات الطباعة: دمشق)
الأسود ليس لونًا (2021) شعر (دار موزاييك: عمّان)
كسر الهاء: ثلاثية شعرية (2024) شعر (دار موزاييك: عمّان)



قلت لك، يا بنت! قد نتأخّر
فلا تتركي علبة التلوين المائيّ مفتوحة
فسوف تموت ألوانها من العطش
ولا تضعي حفنتك اليوميّة من القمح على حافّة الشباك
فإن اليمام لا يحطّ على الشرفات المهجورة
أمّا صورتنا الأخيرة فالصقيها على مرآة الخزانة
كي لا تشعر الحيطان بالوحشة
وهي تحرس ضحكاتك المدحوّة في عروق الحجر

SALAM HALLOUM

COLLECTED POEMS

9 781326 219086

Jidar
Culture & Publishing